
سماوات جائعة
(رواية)
رمزي الحكمي
e-kutub

سماوات جائعة

(رواية)

رمزي الحكمي

إصدارات إي-كتب
الطبعة الثانية، لندن 2015

Hungry skies

By: **Ramzi Alhakmi**

Published by E- Kutub.com
ISBN: **9781780581729**

* * * * *

PUBLISHED BY:
e- kutub.com on www.e- kutub.com & Google Books

:If you would like to contact the author, please write to
ramzi@xd.ae
Thank you for respecting the author's work.

* * * * *

الطبعة الثانية

يمكنك الاتصال بالمؤلف عبر الإيميل التالي: ramzi@xd.ae
فيس بوك www.facebook.com/ramzi.alhakami

عن رمزي الحكمي:

* كاتب من السعودية، من مواليد مدينة جازان يناير 1995.
* طالب في كلية الطب العام، السنة الرابعة.
* مهتم بعلم النفس، والأدب، والفنون.
* هذه الرواية هي إنتاجه الأول، وحاول فيها أن ينشئ صراعا بين الشخصيات والحياة، ثم يجد حلا لعقدة هذا الصراع.
* يعمل حاليا على مراجعة روايته الثانية وتهيئتها للنشر.
* هاوٍ لتصوير طحالب البحر في عصر يوم مشمس.

الفهرس

انطوائيٌّ وكلاسيكيٌّ مُضْجِر

في اليوم التالي قرر أن يحبها!

هو رجل القرارات، والأحزان أيضا...

انهزم في وجه الحب مرارا ولم يُهزم، حاول في كل مرة أن يستعين بريقه على دفع غصة الفشل ترفُّعا عن طلب كأس ماء من أحدهم، ونجح.

كل ما يهمه هو أن يبقى فمه حرًّا، وجيبه فارغا.

الحياة بالنسبة له عبارة عن التواءات معقدة تؤدي حتما إلى أهدافه، ليس ممن يؤمنون بفوضوية الحياة، أولئك الذين ينسحبون في وجه أول حائط، ويتحولون إلى شعراء.

تعلّم أن يقول «نعم» حتى كسرت ظهره، فقرر بعدها أن يقول «لا»، وراح يصنع لها وجوها مختلفة، وأساليب أخرى.

يدرك تماما بأي قدميه يدخل، وبأيهما يبدأ الخروج، ومتى يقفز بكلتيهما!

ليس نزيها وكاملا كبطل رواية، فهو انطوائي وكلاسيكي مضجر؛ ينجرح بسرعة، ويهتم بكل شيء.

وفي لحظة باردة، لم يملك سوى أن يحبها، وأن يكشف لها وجهه الأنيق الغامض؛ ليترك لها فرصة اكتشاف المسافات التي تحتاج إلى وخزة حب لتفيق من خدرها، لم يتردد في فعل هذا؛ لأنه اكتشف أنها أنثى استثنائية، وأن فمه لن يضيع بين يديها.

ليست الأنثى الأولى في حياته، بل الأخيرة ومن سيسكب فيها كل عذاباته، وأحلامه التي لم تكتمل!

كطائر فلامنكو يهوى البيئات الصعبة والنادرة؛ يزدرع فيها ملامحه، وما إن ترغمه الحقيقة على الهجرة حتى يحتفظ بها في ذاكرته ويسافر إلى حيث يبقى معافى الجناحين.

يقول دائما:

ـ «أطبق فمك قبل أن يتيبَّس»؛ لذا يندر أن تخرج معه بكلمة مشكَّلة تماما.

عاد تلك الليلة من عمله قلقا، كان الجو شديد البرودة يغري بالتدخين، وورقة على جبهة الباب تشير إلى أن عامل النظافة انتظره طويلا ثم رحل.

ألقى أوراقه على طاولة الورود الزجاجية المحمولة على جناحي حمامة من الرخام، وقصد صيدليته ليبتلع آخر قرص أسبرين.

دعا طباخه، ثم طلب منه أن يعد له فنجان قهوة مرَّة، فتح بعد ذلك بريده الصوتي؛ ليفرّق دقائق انتظار قهوته التي لم يعد يفكر بدونها.

ـ اللعنة، متى سترد من أول مكالمة؟

إنّه شُوبَقْ. قرر أن يهمل الرسائل المتبقية ويهاتفه.

لطالما تساءل عن سر هذا الرجل الذي تمكن من دخول حياته بقدم واحدة، ولطالما احترمه وقدَّر فلسفته للعيش، إنه يعاني أزمة مالية هذه الأيام ولا يحرك لسانه بسؤال، جمجمة شوبق الضخمة ترفض فكرة أن يمد يده يوما إلى جيب أحدهم ببطء (يتسوَّل)، ولكن الجميع باتوا يفرغون جيوبهم تماما ويدَّعون الإفلاس، فمن أين يأكل هذا الأعرج المسكين؟

كان يفكر بهذه الطريقة عندما جاء صوته متوكئا على تحيته المعتادة: تُفْ عليكم يا أصحاب الفلوس، كيف حالك؟

سلك يده في شعره يفتش عن صبر بينما راح شوبق يناديه بجلافة ويتبعه اللعنة تلو الأخرى حتى «برد بطْنُه» كما يدَّعي، وكان فنجان القهوة يمد أصابعه ويعبث بأنفه؛ يدعوه لأن يكون منتبها أكثر مما ينبغي.

في باله تشتبك كل الأزمنة ولا تختلط، تطيح جدران الذاكرة دون أن تتحطم، يفور الغضب لكنه لا يتجاوز فروة رأسه، هذا شأن رجال الأعمال والمهمات والأرباح والخسائر. ارتشف ساعة سهر أخرى ليستعد لاستقبال أنثى السهر والوقت وكل الأشياء التي تمضي بسرعة، كان عليه أن يبدأ دراستها قبل أن يتنفس الصباح وقبل أن تطير.

ما أخَّره هو أن الكتاب الذي يلمُّها لم يُنجز إلا قبل ساعة من قدومه، فجاءه ساخنا تفوح منه رائحة روحها كيوم ولدتها أمها.

وكضابط كُلِّف بالتحقيق في قضية، فتح الكتاب ليبدأ معها رحلة نسيان تحمل كل صفات الذكرى.

إيمانه بأن الأنثى وطن يحتاج إلى مراحل للتأقلم والاعتياد عذَّبه طويلا، وجرَّعه الخيبات، حتى أيقن أنها ليست أكثر من فراشة. ومسمى «فراشة» لا يتخذ عنده صفة استحالة الوصول إلى قلبها فهو الضوء، ولا يعبر أغشية أعصابه بسرعة كما يتوقع الآخرون، إن هذا يعني له أكثر من مجرد كائن يرفرف وينْهدُّ متعبا بعد أقصر مسافة، يعني أن وطنا لن يكون أخضر بلا فَرَاش!

في سجلاته القديمة... امتزجت طرقه ببعضها فكان عليه أن يضيع أولا قبل أن يهتدي، ويقابل وجوها لم يقتنع بها، تضطره إلى حفظ خطوطها الطفيفة لكي يصل إلى النهاية بلا ذاكرة، وبعد أن مزق جيبه الذي يجثم على فؤاده، واشترى بوْصلته،

صار يحدد هو الطرق التي تؤدي إلى البداية والنهاية في آن واحد.

لا يملك الناظر إليه معرفة عمله وثقافته وماضيه؛ لأنه لم يسع في إظهار جزء من روحه بعد أن اطمأن إلى أنَّ أحدا لن يقدر على فهم باقيه ما لم يتنبَّه للجزء الذي توقعه عاديا في البداية، ذلك الجزء الذي يعطيك إياه عند اللقاء الأول، ويذكِّرك به ساعة اللقاء الأخير.

هي إذن عاكسته بمكر أنثوي، وأوهمته أنها ترى ما لا يراه الآخرون، وهو مولع بهذا النوع من الأشخاص، أولئك الذين يلهيك التنقيب فيهم عن إخفاء وجهك عن عيونهم المفتوحة والجائعة.

«الرجل يحتاج إلى مهارة أنثوية لضبط الإيقاع». أمسك بها وهي تحاول استنبات هذا النشاز في رأسها، فرجع عن فكرة التصفيق لها وشبك يديه.

وعند الفجر، أدركه النعاس وهو يقرأ، فركن الكتاب بعيدا، ومرر لسانه على شفتيه بإسراف؛ ليبقى فمه رطبا!

لم تفعل هي شيئا في هذا الوقت، فقد كانت مشغولة بتمريض والدها في غرفة نائية عن الرصاصات الطائشة، وفي الحقيقة لا توجد غرفة عربية تحمل هذه المواصفات، إلا أنها جازفت وحسب.

كانت تضع إحدى يديها على شرايين خدها المحتقنة بالضجر، وتحاول نسيان وهمها بأن حالته ستتحسن ما بقي يتنفس تعبه وسجائره كل يوم.

والدها الذي عاش معلِّقا مفاتيح وطنه على صدره، اختنق في أرذل العمر بثقلها الذي لم يحسب له حسابا حين كان شابا

بشاربين مفتولين وكتف عسكري، فمنذ تقيَّأَتْ أول بندقية حقدها الوطني في رأس ولده البكر حسَّان، أخذ همه يكبر يوميا، ويبدو أنه قرر مؤخرا أن يوزعه في جيوب نجوى وأخويها الصغيرين؛ ليعرفوا حقيقة الوطن.

بياض وجهه الذي يكابد الثمانين، وتساقط أسنانه تباعا في الأعوام التي وليت موت زوجته المخلصة الحاجَّة لطيفة اضطرت نجوى إلى الرضى ببساطة العيش والانشغال بحساب إيجار البيت وديون البقالة المجاورة، والتمسك بمبدأ «الحبُّ في زمن الحرب خيانة وطنية».

في الأزمنة المـرَّة، علينا أن نؤمن بكل ما هو تافه وباطل؛ لئلا نصطدم ببؤس الحقيقة.. بهذه العزيمة شدَّت نصفها كراهبة، وراحت تبخُّ موسِّعات الشعب الهوائية في فم والدها كل صباح، ويحدث أن تنظر إلى عينيه فتجدهما تدمعان بلا بكاء، فتقوم بسدِّ ثقب ذاكرته بأصابعها وتتلو عليه من القرآن ما يثبت فؤاده ويقربه من السماء، ثم تعود وتتساءل: «من يسدُّ ثقوبي أنا؟».

أما أخوها حسان فقد راح يربي حلمه بالانتقام لصديقه أحمد الذي طحنته الثورة السورية في بداياتها...

كانت تتشبث بإنصاته وترجوه ألا يهلك نفسه، ولكنه ركب فوران غيظه كما يفعل كل مرة وهو يعلم أنه لن يكمل ما بدأه.

قال لها مودعا صبيحة ذلك اليوم:

- يحب التراب أولئك الذين يحبون تراب أوطانهم.

فارتجف قلبها وصاحت عليه:

- أرجوك، الأوطان قصة خُدعنا بها.

ربما لم يسمعها، وإلا كان قتلها قبل أن يغلق الباب، أو ألقى عليها محاضرة في حب الوطن كعادته. هي أرادت تأخيره،

ولات حينذاك تأخير، فقد ابتلاها الله بحاسة الفقد التي حرم منها الكثير من الناس، فشعرت ساعة لمحته يلبس لباسه الهندسي على عجل أنه لن يلبسه مرة أخرى، وإلا ما كانت لتلقي بكذبتها تلك على مسامعه، هي التي تعدُّ مجرد الحب خيانة وطنية.

أم تراها أخيرا تنازلت عن مبدأ ثابت كهذا بعد أن خسرت كل شيء؟

من المزعج أحيانا، أننا نستحيل حكماء ساعات الوداع، فنقول ما لا يلزم، ولو أننا استنطقنا طبيعتنا لالتزمت الصمت، خصوصا تجاه الأشخاص الذين نخشى الكلام معهم أو نتجنبه.

حسان الذي بقيت تفاحته منصَّفة في يد نجوى، ترك في يدها الأخرى حبلا مقطوعا لا يؤدي إلى أحد، وعلق على حيطان البيت حنين الجميع إليه.

ماذا كانت ستفعل أمه للحاق به؟ لا شيء. توقف جسدها عن الحركة فلحقته بعد عامين بكرسي متحرك. وأبوه ما كان بوسعه أن ينفعه به بمكانته التي صارت هشة بعد استقالته؟ سوى أن يعتزل الآخرين ويقعد للسكوت الممرض. وخطيبته هل كانت تجرؤ حتى على بكائه بين أهلها وهي لا تزال مخطوبة بالكلام؟

من المُمِضّ أن نجوى هي الوحيدة التي تكلمت حتى الصمت؛ لأنها وحدها لازمته ما يكفي لفهم أفكاره المتصلبة، وحاولت إقناعه بالتبسُّط في تناول الحياة، وهي من أنقذته من الانجراف مع إغراءات سيدة مطلقة له بالزواج، وسألته ألا يكرر خطأ والدهما الذي أورثه الندم بقية عمره، وهي التي حالت دون حماقاته الأخرى حتى قُتِل، فالموت حماقة لا يد للآخرين في إنهائها، مهما كانت بيضاء ونقية هذه الأيدي.

كيف له أن يعلم قلب يحترق؟

لكنها تعلمت مؤخرا أن تخبئ خسائرها في أوراقها؛ لتبقى صامدة وقوية، فالكتابة صارت وطنها الوحيد وأمها وأخاها.

الوقتُ يأتي بالأشياء

ما زال معتكفا على نصوصها التي جمعها في كتاب أطلق عليه اسم «أخرى»، وتكبر هي في عينيه مع كل ابتسامة، لم تجرؤ أنثى قط من قبل على جعله يبتسم حقا، ومجيؤها في وقت متأخر يجعله أكثر نـهما لولا أنه خطط لدخول عالمها بخطوات ثقيلة.

إنه يقدِّر الوقت، ليس لأنها صعبة المنال، بل لأنه تعلم طويلا أن الوقت يأتي بالأشياء. لا تعنيه بدايات الإعجاب، والكلمات الأولى المبتذلة، والرسائل المطوَّلة، ما يعنيه حقا هو كيف يجعلها تأتي إليه وهي لا تعرفه أصلا.

افترض أن من يبدأ الحب لا يملك أن ينهيه، جرَّب هذا قديما مع هند وما زال حبها يفتح باب غرفته كل ليلة بفضول، ويسرب إليه احتراق جسدها من بعده.

متْخمٌ هاتفه بشهقاتها بعد غيابه الطويل، وممتلئ بريده برسائلها المرتقِبة، إلا أنه لم يأبه بها بعد أن أرادت اغتيال حبه وهو يحبو بين ذراعيها.

هند التي أخبرها أن حذاءها الأبيض الرائع هو ما يقربه منها، فصفعته بعد أحد عشر شهرا بذات الحذاء، وراحت تضمه وتقبل رجليه؛ تسأله ألا يتركها ضعيفة.

لم تعرف هند كيف تحب رجلا يبدأ بحبها من الأسفل إلا بمتابعة السير معه، وحين كان وصوله إلى قلبها وشيكا، فشلت في تحمله ورأت أن تفعل شيئا يثبت سيطرتها على طريقة حبهما... وفشلت مرة ثانية.

إن حياته حساسة غاية الحساسية، الخطأ الثاني عنده غير مغفور دائما، وكم أكلت هذه النظرة الجدِّية للأمور في حياته من علاقات، حتى صار وحيدا يبني مجتمعا مخلصا -كما يصفه- من مجسمات الدَّانْبُو (شخصية كرتونية من الورق المقوَّى)، ويحبهم، يغضب عليهم، يقتلهم، ثم ينام مرتاحا بلا خسائر.

هي إذن، الأنثى التي سيعيش معها عمره بالمقلوب، سيبدأ حبها من رأسها، سيقدِّسها، سيبكي على قلبها لو لقيها، سيموت مطمئنا بعد أن يتذوق صدق شفتيها...

جزء من مأساته يعود إلى يتمه المبكر، إذ فقد فراس أمه قبل أن يميز صوتها من أصوات الآخرين، وفَقْد الأم لا يعوضه حب، حتى لو كان أمِّيًا في صفائه، يعلم هو هذا ويؤمن به، إلا أن أنثى مخلصة قد تنتشل رجلها من يتمه وتقربه من حياة الأطفال، تعلمه كيف يهدأ بالقرب منها، وتشق معه الطريق إلى أمنياته مهما كانت كبيرة ومستحيلة.

عندما كان طفلا بنى في رأسه حلما بلقاء والديه وإخبارهما ببخل جدته وقسوة الله عليه، وأخذ جسده الهزيل يطول كل يوم بمقدار رغبته في سماع النداء الذي لم يسمعه كباقي الصغار، وعندما اصطدمت أفكاره بسقف الواقع، تنازل عن ابتساماته وابتلع حلمه الكبير، وبعدها عافت شفتاه أن تسهرا في انتظار المحال.

عاش سبع سنوات يرقد كل ليلة مشغول البال بلقاء والديه اللذين يسكنان في البلاد البعيدة كما أخبره الجميع، يلبس حذاء توقعاته المهترئ، ويلمِّع كل صباح زوجا آخر يكون به أنيقا أمامهما عندما يعودان، وما إن سأل ذات مرة جدته سؤاله الذي لم يعد يحتمل حتى صاحت في وجهه الصغير وأخبرته بأنهما لن يعودا!

هبط بسلامٍ حاجباه، ثم حاولا التحليق مجددا، ولكن شيخوخةً ألـمَّت بهما فلم يقدرا، رفع رأسه إلى السماء في دعوة حاقدة محاولا إيجاد حلم آخر يغذي به طفولته.

لا ينسى الأطفال خلوَّ أيديهم فجأة من رائحة والديهم، ويختزنون هذا في حقائب الآلام المزمنة، حتى يبعث الله لهم صوتا رحيما يوقظ فيهم بنوَّتهم المنقوصة، ويغسل ملابس أرواحهم، صوتا اسمه الحب.

صامدة كرجل، شهية كما هي

تقول: «أنا ألتصق بمن أحب جيدا. لدي سياسة الانتماء تجاههم».

إن ما يؤرقه كلما قرأ «أخرى» هو أنها تبتعد كلما ازدادت وضوحا، تمشي معه خطوة للأمام وتعود وحدها اثنتين للخلف. هل تراقصه؟!

إنه يدرسها بعمق؛ ليتوصل في النهاية إلى حقيقتها البسيطة. ربما لا تكون مصادره كافية في الوقت الحالي، إلا أنه لا يريد أن يصل إليها وحده، ستساعده هي على هذا.

يستيقظ هذا الصباح بجسد غير متماسك، ووجهه أصفر كلوحة من لوحات فان غوخ. يتحسس بعض الزغب على ذقنه، ثم يهرع إلى المغسلة ليحلقها، وكالعادة، يحرك الموسى خطأ فينفتح وعاء دموي صغير. إن هذا يزيده نشاطا وحيوية.

وبعد وقت تنظيف الأسنان وتعطير الإبطين، هناك وقت استثنائي يحدِّث فيه أصدقاءه المخلصين قبل الإفطار ومغادرة البيت. هم ليسوا أصدقاء بشريين. إنهم مجسمات الدانبو. أقربهم إليه واحد أسماه أمل. وهو الذي يحتفظ بكل أسراره.

يضطر أولئك الذين لا يجدون من يفهمهم إلى اكتشاف ذواتهم في حياة الجمادات. فينطقون بالشعر، يكتبون الروايات، يتجهون للرسم؛ لأن خلوهم من ذات -حتما- سيودي بهم إلى متاهة الجنون الحقيقي.

أمل هو أول دانبو دخل هذا العالم الافتراضي، وهو آخر من سيخرج، ويغلق البوابات، والنوافذ، وأفواه المدفعيات، ويجمع ريش الحمام عندما تنتهي الحياة هناك. يطل على الآخرين من بني جنسه إطلالة الزعيم، كأنه يفرض عليهم أن يبقوا هادئين بخلاف البشر، في ملامحه اندهاش عميق، يداه ترتفعان إلى الأعلى وتتوقفان عند لحظة حاسمة، وصمته يلذ لفراس في أوقات الضجيج.. أمل يعطي الناظر إليه اهتماما خاصا.

أما الذين جاؤوا بعد أمل فهم غالبا يمثلون أدوارا حقيقية في حياته، وجه حزين يمثل هند، آخر مبتهج يمثل شوبق، وفي كل ناحية من الصندوق الزجاجي الذي يسكنون فيه ينتشر زوجان

يحيطهما الحنان والرضا يمثلان والديه، وهو لا يترك أصدقاءه جامدين، فيحاول تحريكهم، ويفترض لهم مناسبات خاصة ويشاركهم، إنه ليس متأكدا من صلته بهم، أهو إلهٌ لهم؟ أم واحد منهم؟ أم غريب عنهم؟

إنها السادسة والنصف. ينهي تمريناته الجسدية والعقلية، ويلبس قميصه الأبيض وشماغه المرقط بالأحمر والأبيض، ويعلق على رقبته عدسة لا يبصر الحروف الصغيرة عندما ينساها.

يأتي أنور سائقه السوداني على توقيت خروجه من المنزل مباشرة. يحمله إلى الجامعة حيث ينفق أكثر ساعات النهار محاضرا فيها. إن هذا الطويل المعقد الدقيق في كل مواعيده يعمل أستاذا لعلم الأدوية. وهو يحاول دائما ألا يبقى بلا فائدة.

وفي ساعات الفراغ، يحرك أصابعه على شاشة جواله ويفتش عن نجوى في المواقع والمجلات التي تكتب فيها، يتتبعها كما يتتبع الأطفال عصفورا كسير الجناح خوفا من أن يشرد، فلم تكن هي كاتبة واحدة حتى يقرِّبها منه بطريقة عادية، بل كانت وطنا ضائعا من الكتَّاب، تكتب بأسماء تفوح منها الأنوثة العطرة، وتكتب بأسماء تقطر منها هموم الرجولة. يحتاج إلى إشعال سيجارة، وهدوء غرفة واسعة، ولا أكثر من فنجان قهوة فرنسية.. إيطالية.. عربية.. يعتمد هذا على حجم الصداع الذي يجب أن يعانيه ليصل إلى أفكارها الشقية.

عاد إلى البيت قبل العصر، كان يلاحق الزمن كمحارِب ينزف، خرج مسرعا إلى الحديقة يحمل ملفات أعماله، وحلم كسول يتردد بين عينيه بمشروع لا يعلم تماما ما هو.

إحساس لطيف يوحي إليه بأن هذه الأنثى ستفجر شيئا فيه، وهذا يعني أنها قد تفجره! من يدري؟ كل شيء سهل على أنثى تصنع من كل شيء سماءً... مهما يكن الأمر صعبا، سيجد خلف وضوحها المفرط ما يأوي إليه ويخلد فيه، فإن شبح النهاية يلوح له كل ما أدرك أنه تقدم في العمر وليس له زوج ولا ولد.

حدثتها نفسها قديما وهي لم تزل طفلة كثيرة الحركة بأن أحدهم سيحبها يوما ويهدي لها *«بكْلة شعر زرقاء، يفضَّل أن تكون على شكل فراشة»*. كثيرة هي الأشياء التي تضحكه في كتاباتها، غير أن هذه الأمنية آسفته، ترى أتكون أمنياتها المتأخرة هذه علامات استسلام سيغريها بالتخلي عن صمودها الذي يحبه؟ ماذا عن إيمانه بأنها لن تكون صالحة وشهية إلا بقدرتها على تعويض أجنحتها المتكسرة كنجم بحر؟ هذا ما يجعل الأنثى مؤهلة للحياة الاجتماعية بكل تعقيداتها على طول العصور؛ أن تكون صامدة كرجل، شهية كما هي!

إنها تقاسي حاجة محرجة للمال منذ دخول الشتاء الذي جمَّد كل شيء. من الجيد -له- أن لديها من الهموم والانكسارات ما يبقيها بعيدة عن الآخرين الذين يصنعون من كل محادثة قصيرة رواية حبٍّ فاسدة.

ولكنها لا تكترث أصلا بما يكترث به. فترى أن من الصواب تقبل أول خاطب يدق جرس انتظارها؛ لتتمكن من تيسير لقمة العيش لوالدها وأخويها.

كم تمنت أن كل الناس تعلموا الأدب كما ينبغي؛ لكي لا يجوع واحد منهم...

ومن الجيد أنها استقبلت قبل يومين طردا من عائلة ثرية تسكن اللاذقية، تعرض عليها فرصة العمل معلمة للغة

الإنجليزية لأطفالها. ما يجعلها تجوع أكثر؟ وصاحب البيت اللئيم يصيح بها كل صباح ويهينها. يا لها من امرأة، كل ما يهمها أن تحيا بكرامة!

وعندما يهم شهر كانون بحمل حقائب أوجاعه؛ ليفسح المكان لربيع أرق وأحنى على الفقراء، تدنو منها فيروز وتواسيها بأن صباحا ما يحمل لها «*بكلة شعْر*» سيلوِّنـها على مزاجه، وتطل فجأة صديقتها (شمس الـمَيْ)، تنحِّي خصلة ضجر عن عينيها وتقول: «بعدك على بالي» (من أغنية لفيروز).

لم تبق سوى فيروز مخلصة لأطفالها، في زمن تتخاذل الأغنيات فيه استسلاما لقسوة الوطن، فيروز هي التي ستتكلم عن الفصول في حياة الفيروزيين الذين تعلموا منها الحب والوفاء للخبز والتراب، وهي أيضا من ستعتذر لأحلامهم منهم، وتعدهم بعدم نسيانها ما داموا يعيشون الظلام بقناديل صوتها وروحها الخالدة في أعماقهم. فعندما تُنسى نظرات العتاب، وتضيع التحايا ومفردات الوداع، لا تبقى سوى كلماتها، يغزل منها الصامتون رسائلهم ودعواتهم.

التقت بصديقتها الروحية شمس الـمَيْ في أحد المواقع الاجتماعية عند بداية الثورة السورية، بادرت بطلب صداقتها حين لم تستطع رسائلها إيصال حاجتها للحديث معها، كانت الثورة لا تزال ساخنة، وكانت شمس تتحدث باهتياج عن «بضعة لِتْرات» من الدم على حد قولها، أخذ إعجابها بها يزداد كلما سقط شهيدٌ حتى تحولت إلى صديقة تبادلها همومها وشعورها بالغربة تحت سماء الوطن، والمزيد من الحب كلَّ رسالة.

لم تكن شمس المَيْ أديبة، ولكنَّ أصالة الكلام ذلك الوقت اختُزلت كلها في القدرة على استنطاق الغضب بأية طريقة!

وبدون السؤال عن اسم الزوج وعدد الأولاد، راحت نجوى تبدأ رسائلها بـ: *«يا شمس المَيْ.. صديقتي الخضراء»*.

كانت هذه نهاية مجموعة «أخرى». أغلق الكتاب بعد قراءته عدة مرات، ودخل البيت ليرتاح.

هو يبكي أيضا

«عفَّنتْني الرفوف، فأسقطوني نحو الحياة العملية ولو مرة، أرفض البطالة!».

خرج من مجموعة «أخرى» بقضية واحدة صالحة لليقين: إنها متعَبة جدا، ومتعِبة، علم قبل أن يلامس أبجديتها أن القراءة وحدها ليست خطوة ناجحة تماما للوصول إليها. وبدأ يفكر في الانتقال إلى خطوة أكثر واقعية لم يتفرغ بعد للتخطيط لها.

تضافرت الأعمال الصعبة الشاقة على كاهل وقته الضيق خلال الأيام القليلة الأخيرة إلى حدٍّ لم يعد بعده يعرف البيت إلا للنوم المتقطع ليلا ونهارا، وبرغم كل هذا يدعوه شوبق كل يوم للسفر إلى جازان؛ لرؤية جدته المريضة. ما زال يعده بالمجيء القريب حتى تأكد من صدق مرضها، أي حتى ماتت.

شعر بنوع من استخفاف الطبيعة به حين وصل إلى مُزْهِرة (قرية من قرى مدينة جازان) وقد توفيت جدته، فصاح في وجه شوبق: «ثلاثة أيام أخرى! لا حول ولا قوة إلا بالله».

اكتسب مناعة كاذبة في فترة بقائه بعيدا عن القرية، كانت تكفي على الأقل لجعله ينام بلا عقاقير، بَيْد أنها أرض صحراوية المفاجآت؛ إن لم تأتـها أتتْك. هذا ما قالته عمته فاطمة ساعة رأته يدخل البيت.

وفي غرفة تشبه مخازن الأدوات غير المستعملة، اتكأ على قَعَادة (سرير من الخيزران، باللهجة المحلية) هبَّت منها رائحة جده الزكية حين نفض عنها التراب، وبكى جدته.

هو يبكي أيضا! ويبكي بسرعة عندما يفقد أشخاصا أحبهم ولم يحبوه، وكثيرا ما يبكي أمثاله ممن يظنهم الناس قساة وجبابرة وطماعين.

أحبت فيه هذا الضعف عمته فاطمة، وحين رأته لم يزل يبكي، تأكدت أن الغربة لم تغيره كثيرا، وغلَّقت الباب؛ لأنها رأته يشيح بوجهه؛ يودُّ أن لا يراه غيرها.

حين يأخذ الله أحد والديك أو كليهما، يحرص كل مرة على إرسال إنسان طيب إليك؛ لكي لا تبقى يتيما ما يكفي للقنوط من رحمته.

إن فاطمة تحبه كما لم يحبه أحد من أقاربه، وتعطف عليه، وتوصيه أن يظل سليم القلب.

ولـما سُكِت عنه البكاء، خرج للعزاء، وليس من أعماله عمل أشد عليه من مواجهة أهل القرية، وذاكرة زمنهم الذي لم يزل يتصبب بؤسا، امتلأت دارة بيته في مزهرة بحزن الكثيرين، وفضولهم، كل شيء في ساحة العزاء مبتذل: الصبر المبالغ فيه، سرد بطولات الماضي، وتنقية الميت من الخطايا، وحتى طريقة شرب القهوة والشاي، وعندما انفضَّ المجلس الثقيل، كان شوبق

يجلس في مكان بعيد ويسرف في سحب المناديل؛ لتنظيف عكازته الجديدة. قال له بوضوح:

- جدَّتك ظلمتني، وأحرقت شجرة الليمون من بيتي ومن قلبي، قبل عشرين سنة!

أعطى أحد العمال أجرته، وسحب كرسيا، ثم قال وهو يجرجره وصوت مزعج تتحرك له الأسنان يصدر منه:

- هذه بداية جيدة لحديث خال من النفاق، أعطني آخر أخبارك، وآخر قصصك التي لا أصدق أكثرها.

نعم، العجوز مُهْجَة كانت تؤذي جيرانها، وكان شوبق وأبوه ممن نالتهم بسوء يستحق الأجر والصبر، لا أحد يجرؤ على نسيان تلك الأيام لتنقيح صحيفتها... كانت لشوبق شجرة ليمون؛ أول شجرة ليمون في القرية، كما يدَّعي، وكان يسترزق منها عندما كان صغيرا برِجْلين سليمتين ووجه شرير عليه آثار جروح لا تموت، فلما رفض أن يعطيها ليمونة بالدَّيْن ذلك النهار، لم يصبح إلا وقد رشَّت عليها البِنْزِن حتى ذبلت.

أجابه:

- أخباري تسرُّ أهل القرية! توقفت عن تهريب القات (نبتة منشطة محظورة في المنطقة) منذ شهر، وأنا الآن مفلس تماما وأعيش على الاقتراض وأموال البنات. صدِّقْ هذا المقطع الحزين فهو حقيقي.

ابتسم بسخرية، واصلَ:

- أما قصصي، فلا أدري إن كانت قصة تورطي في حمل إحدى الصديقات مما تصدقه أو لا.

- قل.

- ذهبت إليها أستلف ثمن العشاء، ففاجأتني بوجود ولد لي في أحشائها.. تدّعي ذلك! فأنا أنظِّف ما ورائي جيدا...

علَّق هازئًا:

-وما أمامك؟

-لا أستطيع الجزم.

قام يتهرَّب من أسئلته، وقال وهو يثبت عكازته على الأرض:

- استحمِلْ مزهرة يومين... يومان فقط أيها البعيد.

بقي في مكانه متجمد الأطراف واللسان بينما غاب طيف شوبق وبقيت كلماته. لا يعْجب من وفاء هذا الأعرج المسكين للأرض التي قشَّرت ذاكرته تماما من معنى السعادة والسكون. فالثائرون لأوطانهم، المحبون لها بصدق هم أكثر من نالتهم بقسوتها وظلمها، بل يعْجب لصلابته، وقوة رأيه في نفسه، ووفائه، ولطالما تمنى أن يرزق حريته، لذا لم يتخلَّ عنه، فهو يتعهده بعد كل غياب بزيارة. شوبق صديق ممتاز ونادر، وهو يشبهه في كثير من التفاصيل.

والدا شوبق تخاصما عندما كان طفلا وتطلقا، تركته أمه بعد أن تزوجها رجل من خارج القرية، أما أبوه فله قصص كثيرة يعرفها الجميع... يُروى أنه انتقل إلى مزرعته الصغيرة للعيش فيها، وذات ليلة، حدث بينه وبين عُمَّاله جدال انتهى بالحرب، ضربه أبو شوبق على رأسه فخرَّ ميتا. لم يقصد قتله ولكنه مات على كل حال، فلم يملك إلا أن غاب عن الأنظار إلى الأبد. هذه بدايات شوبق الطفل الذي سيكبر ويدمن كل أنواع المخدرات والمنشطات ويتنقل بين النساء، وسيكتشف أن له أعداء يطالبون بديَة والدهم القتيل ويحملونه إثم حادثة ليلٍ عابرة...

كومة نشازات بامتيازات موسيقار ثري

اصطدمت به بينما كان في طريقه إلى بيته سحابة نجوى، فأعادت إلى رأسه مشهد شفتيها أو يديها وهي تقول: «*الرجل يحتاج إلى مهارة أنثوية لضبط الإيقاع*». ابتسم بدهشة، وتساءل: متى نجح الرجال بهذه الطريقة؟ الرجال لا يحتاجون سوى جيوبهم لضبط الإيقاع، ولضبط ما من شأنه أن يدخل الأنثى في عالمهم!

فكَّر بجدية في تحليل منطقي لمضمون ما قالته، فوجد أنها أنثى لا تعطي احتمالا آخر لما تفعل، وهذا بطريقة ما سيدخلها عالمه المكتظ بالاحتمالات.

عرف هو بالتأكيد معنى النشاز قبل أن تتوصل هي إلى حماقة أن الكتابة ستفعل شيئا، وبعد أن صار كومة نشازات بامتيازات موسيقار ثري.

وبدل أن يتعلم كيف يزِنُ «ليت هِنْدًا أنْجَزَتْنَا ما تَعِدْ» (لعمر بن أبي ربيعة) ويضيع في تعقيدات أوزان الشعر، جرَّب كيف يجعل «هندا» تنجز مواعيدها بدقَّة.

لا يحتاج الحب، إذا ما صدقت الحاجة إليه، إلى صدفة نبيلة، هذا ما يطيل انتظار أحدهم على رصيف عمره ليتساقط أملًا أملًا ولا ينتهي إلى شيء. الحب في حياته هو إتقان الخطوة والتحدث بلغة الدهشة.

ربما يقع الناس في الحب الأول صدفة ولكنهم يستقبلون الحب الآخر بإيقاعات مضبوطة؛ متوحشين، حاقدين، على استعداد للذة والعذاب بأقصى درجاتهما. لا يكون عاقلا من له سابقة حب!

الحب يعني البطولة عند الرجل إذا كان يعني القَدَر عند الأنثى، وهذا ما يجعلهن أكثر قابلية للإيمان بقدر آخر، على حين يحتاج الرجال إلى مسافة من الزمن ينسون فيها خيبتهم، ويستعيدون القدرة على الإيقاع بخبرة أكثر ونقاط ضعف أقل.

مضت أيام على عودته إلى بيته في الدمَّام، وهو الآن يتنقل بين العمل والآخر ولا يفكر إلا في أن يتفرغ قليلا لمواصلة التنقل على رقعة أقدارها...

استجاب الله لابتهالاتها اليومية وقدَّر لها أن تمارس المهنة التي أحبتها بجنون أيام كانت طالبة جامعية، فبعد أن وصلتها موافقة العائلة، ابتدأت ترتب أوقاتها، وتخصص جزءا صغيرا للنوم والكتابة والوقوف في شرفة بيتهم العالية للتأمل والتفكير.

وجدت في هذا العمل -كما وجد هو في دراسة الطب- فرصة يجب التمسك بها للنسيان وللتعايش مع الأشياء، ولكن حاجتها وإخوتها إلى رجل لا تزال تقلقها وتجثم على أنفاسها كلَّما عادت من مشوارها الطويل إلى فراش النوم.

تسوء حالة والدها سيجارة بعد سيجارة، وقد بدا لها في الأيام المتأخرة أنه بمبالغته في التدخين يحاول الموت بسرعة، قبل أن يرى خسائره في مستقبل ابنيه الطفلين وأختهما المسكينة.

لم يزل يحذرها كل مساء، ويدعو لها، ويسألها أن تعود برغم كل شيء، فلا تدري ما يريد منها. علامات خرف طفيفة تجعل طريقة كلامه أحيانا متراكبة كمن يتكلم أثناء نومه.

يقلُّها سائق العائلة عند الرابعة عصرا من كل يوم، ويعيدها قبل منتصف الليل في أكثر الأيام. ولا تملك هي إلا الانقياد لمشيئة الحاجة، واحتمال الجفاف الأدبي والصحِّي الذي يرافق مشاويرها المتعددة.

وجدت العائلة طيّبة وكريمة، تتخلَّق بأخلاق حضرية، ولا تتعدَّى خطوط الغربة إلى الاندماج والذوبان مع الدخلاء عليها. فهذا يفسد مثل هذه الأعمال كما أخبرتـها إحدى صديقاتها التي عملت مدرسة خصوصية إلى أن تزوجت من أحد الآباء.

وبين دروس اللغة الإنجليزية، تلتهب مفاصل ماضيها وتوجعها حد التنهّد. تتساءل، بينما تضع يدها على يد إحداهن وتعلمها كتابة الأرقام، كم رقما قياسيا تجاوزته أحلامها الطائشة؟ وأيُّ قدر أوصلها إلى 500 ليرة على الساعة التعليمية؟ أيكون كل هذا ضريبة إسرافها في الحلم؟

لا تجيب غالبا على مثل هذه الأسئلة ساعة التدريس، إذْ تحاول أن تنتهي قبل أن تولد الساعة العاشرة تجنُّبًا لمضايقة أم الأولاد التي تحرص على مراقبتها بشكل مزعج ولو كان مؤدبا.

فالزوجات بـتن يخشين على حضورهن، ويشددن في إبعاد أزواجهن عن المعلمات اللواتي يرتدن البيوت، خصوصا إن كن شابات.

تعود عندما ينام الجميع كما يعود الآباء الساهرون خارج البيت، وتلقي بحقيبتها وهمومها جانبا، ثم تمسح وجهها من لطمات الحاجة، وبحرص شديد تستبدل ملابسها بملابس البيت، فهي مضطرة إلى لبس نفس الثوب كل يوم، وتتجه بعد ذلك إلى غرفة والدها؛ لتتأكد من أن علبة سجائره لم تسقط بعد، فيناديها كل مرة تقريبا ويوصيها أن تكون قويَّة، ورقيقة مع أخويها، وكريمة، وأن تحافظ على مرتبها الشهري، وتسدد منه ما يخبئه تحت وسادته من ديون، فتخرج من عنده كل ليلة بوصية تكلفها ساعة إضافية من السهر... ومرورا بغرفة حسَّان، تدخل غرفة غسَّان وخالد، تغطيهما جيدا وتضع بينهما مـخدَّة؛ لكي لا تختلط

أحلامهما. وقبل أن تضع رأسها على أمل الاستيقاظ صباحا، تقوم بتمرين لرفع الذراعين؛ في سبيل التقاط شبكة اتصال من بين شبكات الليل التي لا تزداد إلا تعقيدا؛ لتنظر في أحوال الصحيفة التي تكتب فيها...

ينتهي يومها غالبا بسماع فيروز، عندما لا تفتح شمس الـمَيْ نافذتها بعد طول انتظار، فتستلقي لحساب ديون والدها والتنازل عن رغبة من رغباتها الشهرية كل مرة.

تصبح الفتاة أمًّا بمجرد تراكم الهموم على قلبها، وأن تكون زوجة هذا شأن مختلف. إنها تفكر بطريقة الأمهات العظيمات، تتخلى عن أمنياتها ومشروعاتها يوما بعد يوم، وتركز كل قدراتها على إسعاد من هم بحاجة إليها، تجفُّ عاطفيا حتى تستحيل أمًّا بقلب له سعة الصحراء واحتواؤها وموتها أيضا. يضعف إيمانها تدريجيا بأنها ما زالت يافعة وحرة. ثمة ما هو أهم من الشباب والحرية في حياة الخائفين، ثمة طفلان بحاجة إليها، تحاول هي أن تسعدهما وتعلمهما حتى يكبرا ويستطيعا الاهتمام بأحلامها.

يعلمُ بالضبط أيَّ بابٍ يفتح

يوزع اللهفة للقائها بين المشروع والآخر، الرحلة والتي بعدها؛ فقط لكي لا يتيح لروحه أن تتهور خارج أبعاد حاجته. أعماله تسير بخير، هذا ما يجب أن تكونه؛ لأنه يراقبها بعناية.

يقعد الآن في مكتبه، وتمر الساعة الخامسة دون أن يدرك كم توجعه عيناه، يضع ما بين يديه من أوراق، يغلق القلم، يعلِّق عدسته على رقبته... هذه الأحداث تأذن بولادة تغييرات جديدة في حياته. قد تكون لحظة عظيمة تلك التي يخط فيها المرء أول كلمة، ولكنه حين يضع قلمه يجعل الثانية أعظم!

للمرة الثانية يقرأ مجموعتها، التي لم يجد لها اسما فتركها كما هي «ساعات». طيلة أربعين صفحة، أوشك أن يكون أحاط بها وبكل تفاصيلها، ولكنه لما أعاد القراءة نقض ما بناه حولها من حقائق، وأغلق الكتاب... عندما أغلقه كان يعلم بالضبط أيَّ باب يفتح.

إن من غير المقبول عنده أن يطيل تقليب تاريخها وهو في بيته. مع أنه يتَّبع طريقة نفسية مفيدة، مفهومها أنَّ الكلمات التي نكتبها لا تخلو من رائحة خلايانا، وأسرارنا، مهما حاولنا جاهدين أن نوارب فيها باللجوء إلى لتشابك اللغوي.

شعر بالحاجة إلى العمل تأكل أنفاسه فيمَّم المطبخ؛ ليصنع فنجان قهوته بنفسه. لا يحسن التعامل مع الفراغ؛ لأنه يشعره في النهاية بحاجته إلى أنثى.

أطول شهقة في تاريخ اللقاءات السريعة

«مهارة أنثوية» ترفرف في حلْقِهِ وتعود كلما ابتلعها ككلمة سيئة. لن يكون الحب بينهما. كلُّ ما يمكن أن يكون هو اللقاء.

تتذبذب هي بين الإفلاسات، تواصل الكتابة برغم الجوع والخوف، تقيم صداقاتها هناك وسط جوقة من الانهيارات، وتحلم.. تحلم.. تحلم.

كتبت مؤخرا:

«ترتدي ثوبها المزنَّر بالحياة، تشد وثاق الابتسامة، وتخرج في يوم تغازله الشمس بخجل.

تمشي ملء الطريق رائحة الحلم، و ملء السماء نُدَف الغيم.

كلما رأت غيمة شكَّلتها وأعادت كتابتها.

لم تكن سعيدة كما هي اليوم ولم يعرف قلبها بكاء الفرح كما يعيد تهجئته اليوم.

تسألها صديقتها: حبٌّ آخر؟

فتجيب: كل ما في الأمر قطعة شوكولا!».

لا تزال تقاوم التيار كسمكة، تتحدث عن أحدهم، وتوهم قراءها بحبها له، وهم يصدقون الشخصيات الورقية. أما هو فيناسبه هذا إلى درجة كبيرة؛ لأنه يبقيها محفوفة برائحة رجل، ويجعل ملامسة قلبها أمرا مسلِّيا بعض الشيء، وما دامت تكَّة الوقت هي كل ما في الأمر، وقطعة شوكولا، فهذه مغامرة محمودة العواقب، ما لم يكن للحب أي وجود صريح فيها.

تقول مثلا:

«تفيد كل الروايات أن هذا الرجل الذي دخل إلى حياتها عن طريق الصدفة لن يبقى طويلا...

سوف يتآكل مع مرور الدقائق..

وسوف تحل عليه لعنة عينيها الغائرتين خلف أحزان غامضة.

لن يتَّسع له المكان في قلبها الـمرقع، ولن يستطيع أن يتحمل نزقها وعاداتها السيّئِة.

سوف تحيا وتـموت وحيدة مثل ورقة خريفية على رصيف العدم».

«قصّة حربية؟ أخبرك بها والدك ذات أرق؟ كلنا نموت ونحيا بهذه الحال يا عذبة». يعلِّق أسفل الصفحة، ويغلق الكتاب استعدادا لـمجيء أنور.

إنّها ليلة صيفية تبعث على التوتُّر المصحوب بدرجة الحرارة المرتفعة هذه الأيام... وتذكِّره بمزهرة. لقد خطر بباله أن يختلط بالناس بعض الوقت؛ ليستعيد قدراته على كشف أقنعة تعبهم، فعكوفه على قراءة مصطفى محمود ودنيس ديدرو وباروخ سبينوزا الذي يحبه كثيرا، بالإضافة إلى قراءته المهنية في جديد الأدوية ودهشة التلاعب بالسموم، توهمه بعبقرية الناس من حوله وإخلاصهم ونبلهم، فيخرج بين الوقت والآخر ليعود إلى دجلهم وسذاجتهم.

أول ما لفته وقوف امرأة ثلاثينية مغلفة بعباءة، تجعلها أشبه بكَرْنَبَة، كانت تتمشى بعينيها بين أزرار قميصه بصراحة مزعجة إلى أن دخل أحد المحلات. يضايقه هذا كثيرا ويلجئه إلى اصطحاب أحدهم، أو إرسال أنور لشراء الأغراض. ولكن الشيء الذي جاء لشرائه لا يمكن أن يلمسه أحد غير نجوى.

وحين خرج من المحل بكيس صغير، همّ بالعودة إلى المنزل، لولا صوت الكرنبة الذي عضَّ شحمة أذنه برِقَّة يسأله عن نوع عطره!

- ليس هذا مكانا جيدا للحديث. تعالي معي.

قالت بخوف:

-إلى أين؟
أجاب ببرود:
- أي مكان.
فتح المصعد الكهربائي ساعتها، أشار لها باتباعه، وتوارى عن عينيها بين الأرقام المرتفعة صعودا إلى أعلى طابق. إن ساديَّة ما تدعوه لإتعاب الآخرين، هذا ما علمته انخداعاته بالكثيرين.
ظل ينزل ويصعد بطريقة طفولية؛ ليعطيها فرصة اجتياز الدرجات الكثيرة المؤدية إلى عطره... وبعد ربع ساعة تقريبا، أقبلت بعينين ذابلتين تدوران بمكر، وتتنقلان بين العابرين بحثا عنه. وحين بلغ يأسها مبلغا توقَّعَه، فتح باب المصعد عن وجهه اليوناني المراوغ، فانخفض مستوى صدرها بعد أطول شهقة في تاريخ اللقاءات السريعة. ابتسم ببراءة، ثم أشار لها بيديه (مرَّة أخرى)، وهو يعلم أن جسدها قد بدأ يتبخَّر كقهوة تركية... وللكرَّة الثانية، راح هو يتلاعب بأزرار السلَّم، وهي تتدافع مع فورانها نزولا إلى حضيض الرائحة التي (لحست مُخَّها). أبدًا لم يكن يتسلَّى، بل كان يقلب أموره ويخطط، وهي لم تكن تملك سوى اتباعه على لهفة؛ لتصل معه إلى نهاية.
كانت النهاية موجعة، حين نزلت تبحث عنه كطفلة، وتفتش بمعظم حواسها عن رائحته، ولكنها لا تجده، خطفها أمل بعودته من جهة أخرى، أو من زحمة مقهى، وهو يحمل لوجهها ابتسامة معطّرة، أو يمسك بذراعها ويأخذ أحلامها إلى مكان سحيق... غير أنه لم يكن ذلك النوع من أبطال الأفلام على كل حال، ولم يكن معه منديل (كلارك غيبيل) في (ذهب مع الريح)!

اقتربت منها بعد يأس طفلةٌ حلوة، وناولتها منديل جيب خربش عليه بخط نصف جميل «العطور غالية هذه الأيام». ساعتها، ألـمَّ برأسها دوار دهشة، وذبل جسدها بعد أن كان منتصبا، وترهّل حاجباها، وهي تحدِّث نفسها بأنها كانت غبية وسخيفة. أودعت منديله حقيبة اليد المتدلية من أصابعها بحسرة، وصوت لطيف يهمس لها بأن دهشتها مع رجل مثله لا يمكن أن تتوقف.

هو في ذلك الوقت، كان يبحث عن عنوان رسالة ويدسُّ غليون أفكاره في جمجمته محاولا كتابة شيء. لم يكن ليبالي بقرنبيطة، هو الذي تجشَّم مشواره ذاك لأجل ياسمينة!.

ولكن أين السماء؟

ماذا نقول لهؤلاء الذين يذكروننا بتاريخ ميلادنا؟

اللاذقية ذات أيار.. كان الصباح فيها يشبه الخبز الساخن، ومن السماء تهبط السكينة على قلوب الناس وتجعل أحلامهم غيمات. وتقرقع عربية عمال الغاز وهم يغطُّون آذان الأبواب بصوت فيروز الذي يوقظ في يومهم الضجيج الروحي. كانت السماء لا تزال منخفضة، والنقاشات طويلةٌ لا يشتتها صوت قنبلة من القرية المجاورة. والأزقَّة تفتِّح عينيها على عربات الباعة وهتافاتهم، وتغسل وجهها بقرع نعال الفتيات الحالمات، وهمم الأطفال الـمغرورين بأثوابهم الجديدة.

ينطلق صوت الجارة حميدة من النافذة المفتوحة على حوش بيتهم، ويخبرها بأسماء آخر الفتيات المخطوبات في الحي، وتبدأ يومها بثرثرتها التي لا تطاق حتى تنتهي قائلة «عقبالك». تلمُّ شعرها البنِّي المتشابك، والذي ما زال نيسان يغرد فيه ويغازل شحاريرَهُ، وهي تدعو أن تغلق هذه النافذة قريبا. تمشي بخطى ناعسة نحو المطبخ، وتعد كأسا من الليمونادة. ترفع رأسها إلى السماء برجاء، وترسل قلبها إلى الله؛ ليفعل برغباتها ما يشاء...

ذات أيار.. اللاذقية كانت أشبه بأرملة، واحتبس الصباح في حنجرة الآن، ولم يفكر بالعودة. ترتب أعمالها حسب جدول انقطاع الكهرباء، وتنظر إلى النافذة بشهوة الأحاديث البعيدة عن الواقع، وتقتصد في دعواتها. الطرقات من حولها خاوية من الأيام، والسماء تسعل لكثرة دخان الأمس من بيوت الضحايا وفم أبيها. تكاد تنسى كل شيء، حتى نفسها. ولا تزال تنتظر أن يبتسم الله لها وينسى هو أيضا كل شيء كانت تسأله.

وبينما تحمل حقيبتها، وتحقن عضلات وجهها بابتسامات مصنَّعة، يطرق الباب رجل مهذب في أواخر الثلاثين، يسلِّمها صندوقا كلاسيكيا بدا لها أنه فاحش الغلاء، ويغادر بصمت. يصيح عليها أبوها من الداخل: «من يا ابنتي؟»، فتجتاز سكوتها بمهارة اعتادتها وتخبره أنه ابن الجيران...

كان الصندوق من الداخل هادئا كتابوت، خاليا إلا من *«بكْلة شعْر»* تتصل بها ورقة بيضاء تضمُّ أرقاما منسيَّة..

تساءلت: أي صاحب مزاج رائق هذا؟ وكيف عرف تاريخ ميلادي؟ لامت نفسها على حماقة قبولها بدون السؤال عن صاحبها. ربما لأن الجميع هناك اعتادوا على أن الأسماء لا

محل لها من الاهتمام. فهي تروح وتأتي كطيور الربيع ويحدث ألا تعود.

شعور ما بالضحك، يشبه ذاك الذي يكون بعد استنشاق لحظة من أوكسيد النيتروز، باغتها وهي في عمق حزنها. أيكون حقا رجل آخر؟

سحبت ماسكة الشعر، بينما تسمِّر عينيها في بياض السماء، واستبدلتها بهديته؛ لعلها تطير كفراشة. لعلها تسترد أجنحتها!

اهتز كل شيء في جسدها وهي تعقد رائحة رجل غريب في شعرها ولا تأبه بكينونته. ساعدها مزاجها الأدبي المتفتِّح صباحئذ وحاجتها إلى بكْلة. وتضوَّع من عينيها أمل في أن يكون حقيقيا كل هذا.

استبعدت أن تكون الهدية من صديقة قديمة؛ لأن الإناث يتركن ورقة السعر على هداياهن. كانت اللمسة تحكي طيش رجل يحسن اللعب كالصغار. كانت استثنائية كرائحة عطره التي تطوف برأسها، كأفكار نصٍّ لم يولد بعد.

الأنثى التي قرر أن يقترب منها على طريقة الرياح بطيئة وكسولة كسماء مزهرة. والعجلة معها كانت فعلا خاطئا لم يتصور أن يقترفه يوما...

ينام بإفراط، خصوصا بعد نزلة برد أعقبت خروجه للسباحة ليلا. يقوم على خدمته أنور، ويلح عليه كل مرة بأخذه للمستشفى، وهو لا يزيد على التظاهر بالتعافي، والحديث مع أمل كل حين.

تعبيرات شعرية تسقط من لسانه ساعات وهو يحدثه، فيضحك عندما يتصور -مجازفة- أن يصبح شاعرا فجأة.

الشعراء أبناء خيالاتهم. هل يصلح له هذا؟ هو لا يريد أصلا أن يكون ابنا لأحد. وإلا فالكثيرون الآن يشترون شاعريتهم بالمال والجاه، والسوق مكتظة بالقصائد السريعة. هو يريد أمًّا، وبين الأولى والثانية كما بينه وبين الشعر.

خرجت إلى عملها في بيت آخر، وهي مملوءة به وفارغة. طالما تمنَّت شعورا كهذا، ولو كذبا؛ لتعيش يومها بسخرية «سِكَّة بسراب أكرم من سكة فارغة» وهي في صمتها تقول: «ولكن أين السماء؟».

لم تفكر به كثيرا، بعد أن دلَّ كل شيء على أنه الرجل الذي يأتي متى شاء، وينصرف متى ملَّ. التعلق به بطريقة مباشرة كان اعتقادا خطرا في أيام كهذه، فقررت أن تستجيب لمحاولاته في سبيل الظهور أمامها حين تكون أحوج إلى رجل مجنون.

ستبقى إلى الظهر في بيت إحدى الأمهات، تعلم فتاتها بطيئة الفهم، ثم تعود بلا قيلولة؛ لتحضر الغداء. وعند العصرية يجب أن تودعهم إلى بيت آخر، ولا ترجع إليهم إلا بعد العاشرة. تأمل كل مرة أن يكونوا تعلموا طريقة تحضير سندويتشات الجبنة بالزيتون؛ حتى يهونوا عليها أثر الحسرة التي تشعر بها إن هي عادت ووجدت بطونهم فارغة، بعد أن ناموا.

قررت الانتقاص من أموال الديون التي تخبئها تحت فراش نومها؛ لترفيه أخويها قليلا، ولشراء زوج حذاء بدل الأول الذي تلِف أخيرا. ولحاجة أبيها المتزايدة إلى السجائر، ولارتفاع سعر السيجارة من جانب آخر، تراجعت عن رغبتها في شراء ثوب جديد تسكت به نظرات السيدة التي تدرِّس ابنتيها...

أما فراس فأحبَّ أن يبني علاقة بالفلك، فأرسل في شراء تلسكوب يرى به الحقيقة الغائبة. هيأ له غرفة متوسطة الوسع

في حديقة المنزل، وزودها بمعدات الرصد وعزلها عن العالم الخارجي تماما.

يقول الفيزيائي والفلكي غاليلو غاليلي: «يجب أن يتدخل المنطق حيث تخذلنا الحواس». يعمل على هذا كل مرة يشعر أن عقله هو الذي تبقى له.

مصادقة الأجرام العلوية تلح عليه منذ فشل في أغلب علاقاته بالأجرام الأرضية الجميلة العفنة. يأخذه التناغم الحركي للأفلاك، والخطوط الدقيقة التي تسير على نظامها المصنوع بدقة. وهذا يحدُّ من بعض فوضاه أحيانا، ويمنحه توازنا فكريا وجسديا هائلا.

بعض الأوجاع لا يخفّفها مثل صدر أمّ. وهذا سبب تخبُّطه بين صيدلية بيته وعقله، وخروجه من كل محاولة بأثرٍ جانبي آخر.

يزعم هو أن الله لم ينتزع رحمته منه باليتم ويتركه كشيطان. يرى أن ثـمة أخرى تنعم بالرحمة ستضمُّه بأجنحة أنوثتها كما لا تفعل الأمهات!

أليس كرما من الله أن يحدث كل هذا؟

يخالفه شوبق ويدعي أن الأيتام بؤساء آخرون، أودع الله محبتهم في قلوب عباده، وخصهم برعاية الأنبياء، لكنهم يطيشون دائما عن حقيقة محنتهم. قال شوبق غاضبا:

- لـم يجعلك الله يتيما لتكون فاجرا.

- لم أكن أقصد الفجور، افهمني أرجوك.

- ما تقصد إذن؟

فرّق بين يديه اللتين كانتا تغطيان وجهه ثم قال كمن يتحدث إلى نفسه:

- الحب.

ضحك شوبق بهستيرية، تنفس من أرجيلته بعمق، ثم قال والدخان ينساب من فمه وأنفه:

- يا هذا، صدّقني. إنها متاهة قدريَّة. اليتم ليس أكثر من فرصة للبر بالوالدين. ستتمنى أنك ولدت وحيدا حين تجد أحلامك ضائعة في ضياع أبوين لا يعرفان إلا أنهما أذنبا بإنجابك!

صاح في وجهه:

- لا تسقط مأساتك على الجميع.

ثم ارتدّ إلى مجلسه تتسارع أنفاسه كمن استيقظ من رعب حلم، اقترب منه شوبق، اقترب أكثر، قال وهو يمرر رأس عكازته على ذقنه:

- لم أشك إليك مأساتي، ثم إنها لا تكون مأساة كل مرة، اسألني أنا، اسألني، اسألني.

واصلَ:

- لا تظن أنني أشعر بالخزي لأن أمي تزوجت غير أبي. ولكن ماذا عنك؟ هل سخَّر الله لك الأنثى التي تخدع نفسك بها؟ اذهب إلى خالتك واطلب منها أن تعيد ابنتها إليك. هل تجرؤ؟ اذهب ودعني ومأساتي.

- ...

عاد إلى سريره، وجمع أغصان القات التي كان يأكل منها، ولم ينْبس بكلمة. علم أنه قال الحقيقة المرة، إلا أنه ارتاح عندما شعر أنها ستحرك في صديقه شيئا.

وما إن بدأ مسجل شوبق القديم بالغناء وقام يشعل حجرًا ثانيا حتى أسكته فراس وقام يلملم أغراضه وهو يقول:

- سأسافر إلى حيث لا تعيش أنت!

كان يعي ما يقول ساعتها بالإضافة إلى أنه كان ممتلئا حقدا وغيظا. يئس حين لم يحرك صديقه لسانه بكلمة وداع، وأغلق أذنيه يهدئ الأصوات بداخله.

اجتاز كثبان الرمل الفاصلة بين مزرعة أبي شوبق ووسط القرية مغمضًا عينيْ حزنه ومنتعلا أوهامه، وأسرع بإغلاق بيته بحرصِ مَن لا ينوي العودة قريبا. أبَقَ من تعاسته فوجد نفسه في صالة مطار لا يعرف إلى أين تتجه رحلاته. ما يحمله على البقاء في مدينة لا تريد سوى أن تحبل؟ لقد جرعته من التشرد ما كاد يهلكه ويحطمه كورم خبيث.

استقبله أحد الموظّفين وسأله: «إلى أين تحب أن تذهب؟». فكأنه خاطبه بلغة تتقلب كالليل والنهار: «من أين تريد أن تفرّ؟». حكَّ خارطة ذهنه باحثا عن مدينة هادئة وفارغة من شوبق، ثم أجاب: «المنطقة الشرقية».

بين يديها الحلوتين

يتنقل بين صالته الرياضية، وحوض السباحة، وغرفة الرصد؛ لينْهك جسده الذي تزداد حاجاته كلما ازدادت مساحته. الرياضة في حياته هي طوق النجاة من تخمة العاطفة، وترهُّل الأفكار.

منذ قرابة عشر سنوات، أحب تصميم هذا البيت وكان مالكه قد علق عليه لائحة (للإيجار بالكامل)، فقرر أن يشتريه.

البيوت القريبة من بيته ساكنة كأعشاش طيور موسمية، يغلفها الصمت وتلتف حولها دائما ملامح سفر قريب، الإضاءات ليست شديدة البياض كتلك التي في جازان، بل زيتية أغلب الوقت والسّكة لامعة وصافية كمرآة!

هدوء الحي الذي يشبه الأفلام الصامتة، وتخاطب الناس هنا بـ «يا محمد» (الخليجيون ينادون الغرباء بهذا الاسم) فيما بينهم يهيئ له جوا سلميًّا وذاكرة مسيَّجة بالمجهولية...

وبينما ينشف شعره، بعد أن تعرض لغواية الماء البارد عصرا، كان أنور يمشي نحوه بسرعة على غير العادة، ويخبره أن مكالمة ضرورية في انتظار ردِّه. لم يكن أنور ليخاطر بالحديث معه حول موضوع لا يستحق، لولا إلحاح المتصل على كلا الهاتفين. طلب منه أن يأمر بتجهيز حمَّامه وانصرف لحل هذا التعقيد المسائي. كل الأسماء حضرت باله إلا اسمه. أيعقل هذا؟ إنه شوبق مرة أخرى، يحمل قضية عاجلة. ردَّ متهكما:

- أستعد لأيَّة لعنة تعجبك هذه الساعة. عدد المكالمات لا يوحي بخير.

- هل تحسبني واحدة من اللواتي...

قاطعه:

- اختصر. ثم إنني لم أعرف أنثى منذ صرتَ أنت أبًا!

- طيّب، أنا أحدثك الآن من الحدود اليمنية.

سَعَلَ بشدّة ثمّ واصلَ:

- وأحتاج مساعدتك. لقد احتجزوني.

- لن أراوغ. ولكنك تعلم.

قاطعه بقسوة:

- لا تراوغ إذن. سأخرج بمشيئة المال، يا جبان.
- اهدأ قليلا. ما بك؟
- كل مرة تخيبني. إن كنت ترى اتصالا عابرا منك بأحد المعارف وساطة (من النوع الذي تبغضه)، فأرحني من شماتتك.
لَعَنَ أحد المحتجزين معه في الغرفة، ثم أكمل:
- أنت متملِّص لا تصلح لشيء. سيأخذون الجوّال مني. انس أمري.
دمّر هذا القات حياته وأكل من وجهه. لا يلبث أن يخرج من سجن حتى يدخل آخر. طالما ناصحه بالابتعاد عنه، وهو يصر على كونه نبتة من نبات الأرض، شأنها شأن الجرجير والخس، ولكن الناس فهموها خطأ. يقول: «الناس مغرورة بالمنطق. هاكَ غصنا، جرّبه. هل سيصدق عقلك أنه من شجرة ملعونة كما يصفون؟». أكّد له عبثية البقاء على مبدئه هذا، ولكنه متصلّب الرأي، أو كما يصف نفسه «في رأسي حَبٌّ لا يَنْطَحِن!». والآن يعود -كما يعود زملاؤه- إلى من يكفلونهم، ويتوسل إليه.
فراس تحرجه نزاهة كهذه كثيرا. والمتمسك بمبادئه الآن يجب أن يظل في آخر الصف. تتجاوز الأوامر طوابير المتصببين تعبا، وتنْفُذ ضاحكة من الأنظمة. أما شوبق فيخرج كل مرة من قبضة الجمرك اليمني بقدر من المال يفوق أجور ثلاثة من المعلمين الكادحين. وهذه المرة عندما اصطدم مع نزيه آخر توجَّع يطلب العون. وبلا شك سيقف هذا العسكري النزيه عند حدِّه، وستنقطع مسؤوليته، وسيؤمر بالحفاظ على أكل عيشه، وسيخرج شوبق ليواصل تبلُّده.

عاود شوبق الاتصال به عند فجر اليوم التالي، وكان قوي الصوت بعد أن أطلق سراحه -بكل بساطة- بثلاثين ألف ريال دفعها وهو مغمض العينين، وخرج باسم النزاهة المدفوعة، طليق اليدين والأفكار.

أمثال شوبق يتمسكون باسم البطالة، وينادون بصوت الحاجة، ويعملون على اغتصاب الثروة من جيوب الأسر المتفككة، وعقول الشباب المدمنين.

هم حقيقةً محتاجون ومتشردون بشدة. وهم أيضا غير راضين عن الفساد الذي هم سببه. ولكن ترحيب المجتمع الذي يقبل أي شيء ساعدهم ومنح وجودهم أهمية. يدفع أحدهم ثلاثمائة ريال مقابل حزمة الليلة الواحدة، ويقسم عندما ينتهي ألا يعود إليه مرة ثانية. ولكنه يستيقظ في اليوم التالي وبه توق إليه، وعينه تنظر إلى معاصم الزوجة أو البنات؛ تبحث عن ثمن تخزينة (هي كمية القات، بالعامية).

لا أحد -سوى الذين بصَّرهم سوء الحال- يدرك كم أن ثلاثمائة ريال بوسعها أن تمنح أسرة أسبوعا من الرفاهية المعقولة، وتسكت ألسنة جوعهم المستمر.

كان القات وسيلة للسمر، فبات ضرورة للراحة والتفكير ودوام الصداقات والأسر! عشرات الطلاب المراهقين يمشون في الشوارع منفوخة أشداقهم، ظنًّا منهم أن الآخرين لا يعرفون معنى الكيف، ولم يتذوقوا ما يعطيهم النشوة والقدرة الجنسية العظيمة والحب والشاعرية. وتعلموا كيف يبررون أخطاءهم، فيزعمون أنهم يسعون للعمل الجاد، السهر للدراسة، البقاء في المنزل بعيدا عن أصحاب السوء. وما إن يتّكئون ويقطفون وريقاتهم حتى تتوق آذانهم لسماع الغناء، وعيونهم لمشاهدة

العري وأجسادهم للمضاجعة الوهمية، ثم يكتشف أحدهم بعد حين أن جسده لا يصلح لكل هذا، لا يصلح سوى للنوم الطويل.

اتجه إلى مكتبه بعد الاستحمام؛ ليستكمل قراءة بعض التقارير عن أعماله التجارية. كانت تسير على ما يراد، فوجه أفكاره إلى نجوى. لا يدري، أهو الحرص على الاحتفاظ بجديدها أم الاشتياق إليها؟ لم يتفرغ للتفكير بها منذ وضع صندوقه بين يديها الحلوتين، ولم تفعل هي. كل ما فعلاه هو أنهما ابتعدا عن بعضهما.

لمح قائمة من البوح تنسدل من اسمها المنغلق على عطره كجوزة هند. ما يدهشه هو أنها لا تزداد بموتها كل يوم إلا حياة وفتنة! وأنها لا تكف عن التحرش بقرَّائها، وتسريب القليل من رائحة رغباتها إلى إعجابهم وحبهم. هل تكون طامعة في مغامرة أحدهم بالتجسد في عالمها؟ هل ستحتمل أن يخرج عليها أحد شخصياتها في انقلاب، ويغير كل شيء فيها؟

أيكون نبيًّا؟

حين عادت إلى البيت في ساعة متأخرة، لم تكن تطمع في أكثر من سلامة والدها، وأن أخويها لم يناما على السَّغَب. هرعت إلى المطبخ الصغير الذي يشبه خزانة التذكارات القديمة، وأطفأت حرارة الجو بشربة ماء لم تكن باردة كما أرادت. تفقدت صدور الجميع فوجدتها لا تزال ترتفع وتهبط بسلام. وفي غرفتها كان ينتظرها موعد مع شمس المَيْ. كان

الوقت غير مناسب للاحتفال، إلا أنها اعتادت الجنون معها. تماما كما اعتادته مع وطنها.

كتبت شمس:

- على الحافة.

- هل تحاولين سرقة العتاب مني؟

- الآن هي الثانية عشرة إلا دقائق من عيد ميلادك. أنا مجنونة وسعيدة بك يا نجوى.. هيا افرحي يا معقدة.

- يا لطيف!.

- ما بك؟ هل حرَّموا الاحتفال أيضا؟.

- لا.

- ما بك إذن؟

- طرق باب بيتنا اليوم رجل غريب. ناولني صندوقا فيه هدية مرفقة بتاريخ ميلادي. إنني أنا المجنونة.

- وماذا بعد؟

- لم أعرفه.

- هذا مفرح. لماذا أشم رائحة التعاسة تنبعث منك؟

- حاولت اللحاق به وسؤاله لكنه غاب. لقد استخف بي وأهداني بكلة شعر.

- ههههههههه سأموت من الضحك. إنه اقتصادي جدا.

لم يكن مؤدبا معها، لم يقف ليستمع إليها وهي تشكره، أو تطرده، أو تخبره بأن زمنا كهذا لا تقبل فيه الهدايا ما لم تكن مكشوفة، وأن التظاهر بالقدرة الخارقة، والسرعة الضوئية ليس مما يحرر أنفاس امرأة تعيش في الظلام.

سار في دمها إحساس يشبه ذاك الذي يكون بعد الخطيئة، فتساءلت حول هذا الكائن الذي لا يحتمل، الذي يدعي أنه

يستطيع ضبط التوقيت كما يروق له. لا تجسر على القرب منه أو السؤال عنه. كل ما يمكنها فعله هو أن تغلق دونه قلبها؛ لأنه بدائيٌّ عابث سيفسده. وأن تفتح بابها لهداياه فهي تحتاجها -خصوصا- لو حدث أن أرسل إليها بطيخة حمراء أو خبزا ساخنا نظيفا!

فكرت في كل هذا وهي تنتظر عودة الشبكة إلى جوالها، لكنها لم تعد إلا في وقت متأخر... بعد أن نامت شمس الـمَيْ.

تنهّدت، وبعمق أخذت تحاول النوم مغناطيسيا، ولكن عقلها الباطن المشغول بهذا الرجل بقي يثرثر، والجو حار جدا.

رأت أن من المناسب أن تكتب، ففتحت بوابة جديدة، وبدأت تسحب شبكتها بهدوء. وكصياد نحِس، لم تخرج بكلمة مكتملة، فآثرت أن تسمع.

سدّت أذنيها بسماعتها السلكية، ونامت على صوت فيروز...

أيكون نبيًّا بُعث ليتمِّم أقواس أحلامها المفتوحة على شساعة الحاجة؟ وحدهم الأنبياء يتقنون التعرف على توقيت الخمود الشامل، الضلال، الرجوع، ويؤمرون بإعادة روح الحياة إلينا. وحدهم يجيئون كالغيث من كل ناحية، كالنور قبل أن يميت الظلام العيون، ويتركون وراءهم النفوس رطبة ونقية.

فنانون أو مختلون عقليا

الثلاثاء هو اليوم الوحيد الحقيقي الذي يتيح له أن ينظر بعينيه وعقله في آن واحد. وهذا ما لا نجربه إلا قليلا. يرفض هو فكرة

العقول البدائية التي تستند في كل شأنها على العادة والطبع. ويرى أنها تمثل مشكلة العصر في التعامل مع كثرة الأحداث. وفي سعيه لانتشال حواسه من تجمدها، يقوم بتنويع نشاطاته، وتلوين تفاصيله بأسلوب مختلف عن سابقه كل فترة. فهذا يحرره من عبودية الركود التي توقف عندها الآخرون الذين يعتقدون أن «مشِّ الحال» ستمكنهم من رؤية الأشياء كما تبدو في قالبها الحقيقي.

إن من يضع حذاءه في نفس المكان كل يوم قبل أن يدخل البيت، سيتعطل عقله مع الوقت وتتولى العادة دور إدراك موقعه! كذا من يترك قارورة العطر بلا غطاء، ومن يأكل نفس الطعام، ويقرأ ذات السورة في كل ركعة... كل هؤلاء سيستحيلون بعد فترة إلى آلات لعادتهم فيفقدون رائحتهم، ولذة شكر ربهم، والشعور به. وكل هؤلاء هم من يحتلون النسبة الأكبر في الخارج، فيمسي الخروج من البيت شكلا من أشكال زيارة المقابر المتحركة، التي صنعتها كثرة الأشياء. إن تكرار القبلة على أثر التي سبقتها تـميت الإحساس، وتجعل التقبيل -هذا الخشوع الصادق- مـجرد وضع الشفتين على المكان؛ لإصدار الصوت.

في يوم الثلاثاء يعتزل الأرض تماما، ويتجه بكيانه إلى ما وراء غلاف الرتابة، حيث المخلوقات أشد إيمانا بالله. يحتجب عن الكل في غرفة الرصد، ويوجه مقرابه إلى الأعلى للذوبان في عالم الطبيعة الصافية. حين أدرك أن خارج هذه الغرفة ليس أكثر من عناصر كيميائية تتفاعل داخل أنبوب محدود، أبـق إلى الفلك المشحون بالنشاط والحياة والحقائق.

السُّدُم كثيرة هذه الليلة. وهذا كفيل بإرهاقه حد إبعاد عينيه عن عدسة المقراب؛ للاستراحة قليلا. ماذا يعني تكاثف السدم غير ولادة النجوم أو موتها؟ ما الفائدة من متابعة مشاهد يراها كل دقيقة في نفسه من الموت والولادة لا تختلف إلا بكونها نظاما محكما في الأعلى، ومزيجا من الفوضى حيث هو؟

يتنقل بين نجوم الجوزاء البديعة، يلج في أسرارها، يتصفح وجودها وحقيقة كينونتها وهو يدرك أن النجوم التي يراها قد تكون ماتت وتفجرت منذ ملايين السنين.

غادر غرفة الرصد عند الثانية صباحا وهو في قمة التعب البصري، يرهقه صداع شديد، استلقى على كنبته المفضلة وظل يحرك مجسمات الدانبو داخل صندوقها الزجاجي.. يفرق بين زوجين، يجمع بين شتيتين، يتحدث إلى أمل قائلا:

- إنني أشبهك.

ينظر إليه أمل بعينيه المندهشتين رافعا يديه للأعلى ولا يتكلم. يكمِل:

- أشبهك جدا. أنت واقف هنا تنتظر اليد التي تحركك. أنت مستسلم وشارد الذهن. لكنك الأقوى والأجمل. ألا تقول شيئا؟

لا ينطق أمل بكلمة. يكمِل:

- في يوم من الأيام كنت كرتونا لا شكل له. ثم اكتشفت فجأة أن لك ملامحا وذراعين وساقين وفمًا مفتوحا طول الوقت. ألهذا أنت ساكت؟ هل تتأمل وجودك هنا كما أتأمل وجودي؟ قل لي ما رأيك بي؟

نظر إلى عينيه فوجدهما حائرتين. لمسه بأصابعه:

- أنت لا تعرف عني شيئا.

كم هي سعيدة هذه الجمادات. كم يتمنى لو يستطيع رؤية مجتمع مثالي كالذي رسمه لها. يعيش فيه بسلام ولا يضطر للحديث مع أحد. وكم يتألـم حين يفاجأ بأن الأشقياء أمثاله يتحتم عليهم أن يصنعوا من خيالهم شخصيات خارج المكان وخارج كل حد. فهم إما أن يكونوا فنانين أو مختلين عقليا.

مشى بخطوات ثقيلة نحو مكتبه وهناك كانت نجوى لا تزال تكتب مهملة انتظاره وكل شيء. فضَّل الوقوف خلفها قليلا؛ حتى يترك لها فراغا كافيا لمد جناحيها. يعجبه أن يراها محلقة ولو كانت واقفة. إن القراءة لها غيرته. كشفت له عن نقصه وحاجاته. وقادته إلى حياة الفن.. يقرأ ويكتب ويتأمل النجوم ويصنع مجتمعه بيديه.

لقد عرضت عليها دار نشر لبنانية وظيفة طالما تمنتها قبل أن يمرض والدها، فطلبت منهم وقتا للتفكير وحساب ما قد يضيفه المرتَّب الجديد إلى أسرتها.

ليست مرتاحة أبدا في عملها القديم، فأبوها يتعب بشدة في الأيام الأخيرة. اقترحت عليها صديقتها شمس السفر إلى بيروت حيث توفر لها مسكنا وتساعدها على إيجاد وظيفة، فقررت انتظار الدراسة حتى تنتهي، ومواصلة الكتابة.

ما تراه يعد لها الرب الذي ترفع إليه قضاياها كل ساعة بلا جدوى؟

العثَّة التي كرهناها تعيش الآن معنا!

يوقظها غسان عند التاسعة صباحا يشكو لها حرارة ماء الشّرب، ترفرف برموشها القططيَّة وتبحلق فيه باستغراب، ثم تنظر إلى الساعة التي توقفت عن العمل. في أي وجه تدرك كم نامت؟ في الحوائط الواجمة من حولها أم في شحوب أخيها؟ أم في العرق الذي يبلل مخدتها؟ أم في ثقل أطرافها المشبعة بالدم؟ أم في رائحة سجائر والدها التي تشير إلى أنها نامت أكثر مما يجب؟

بعثرت حولها تبحث عن جوالها... وبعد أن تبين لها أن الجميع جاعوا فوق طاقتهم، قامت بسرعة نحو المطبخ على أمل أن يكون جُبْن العشاء سلم من حرارة الثلاجة التي أفسدت كل شيء.

بعد ساعة، حين كانت شمس الضحى تلفح أفكارها فتنبعث منها رائحة رواية، لم يعد الجوع هو الجوع، وامتلأت بطونهم، وراحت شفاههم ترسل الصلوات إلى السماء.

تفقَّدت أباها ساعة تناول الدواء فلم تعثر عليه. ظنت أنه خرج في طلب عامل بقالة الحي أشرف الذي يصلح ثلاجات الناس. إنه ما إن يتحسس مشكلة في بيته حتى يلجأ إلى تمثيل مشهد خاطف يبعده عن بقائه عاجزا تعوله شابه لا تعرف كيف تعتني بنفسها.

بصرت به يلج غرفة الملابس، فغيرت وجهتها وقصدت المطبخ تعد فنجان صبر... وبينما تطوف حول فراغها بملعقتها الصغيرة، سمعت خطى ميتة تقترب، فالتفتت، فإذا به يقرأ وجهها بصمت المعلَّقين على حبال الموت، وينقل عينيه بين

عينيها كأنه يريد أن يتعرف على هذه العظيمة التي أنجبها، هذه الطفلة والأم والصديقة والزوجة. ذهلت هي لما رأت الطاقية العسكرية المهيبة تعلو شعره الأبيض، ففتحت فمها، فأطبقته. أزاح الطاقية. سكت قليلا، ثم قال:

«كنا في الجيش نتعلم كيف نأكل من أصابعنا حتى نبقى. كنا نشعل النار طول الليل ولا نأبه إن لم تمنحنا الأمان إلا مع طلوع الفجر. أنا لا أبالي أن أموت جوعا أو قصفا أو بفعل سجائري. لكنني أخشى عليكم الهلاك. فالحياة وحدها لن تعلمكم أكثر من الاستسلام لها. فنحن وأولئك الذين يعرضون صدورهم للموت في الخارج، وحدنا من علَّمَنا الموت ألا نموت ونحن أحياء. لئن سألتني عن دمعتك التي تنحدر وتأخذ معها الكثير من عمري، أجبْك بأن ثمة دمعة لا ترينها تنزف من أعماقي وتحبسني يا ابنتي. لئن سألتني عن أخويك الذين يلعبان خارجا تحت احتمال أن ينتقلوا إلى دار غير هذه الدار في أي لحظة، أجبْك بأن ذلك أكرم لهما من أن يدركا يوما حجم حاجتهم إلى مراجعة تاريخهم وأسمائهم وعصافيرهم التي هاجرت قبل أن تمطر السماء؛ لأنها بالفعل أمطرت ولا تزال تمطر الفناء. يفرُّ أصدقائي -كما أسمع- بأحلام أسرهم خارج لافتات الموت المؤكد هنا. ولكن لمن سيكون التراب إذا لم يبق فيه سوى ما تحته؟ أنا عاجز تماما فلا تبكي.. أنا أنهار. تعالي حبيبتي، تعالي وتأملي معي كيف أن العثَّة التي كرهناها تعيش الآن معنا**!** اسمعي صوت الرياح، صوت الحياة في كل مكان. لم يمت وطننا. أملنا هو الذي مات. نحن في وطن الزيتون الذي لا يذبل».

ارتـمت على صدره الشامخ بتعب، وتمنت لو أنها تجيد الوقفة العسكرية والتحية التي تليق به. وعندما تعب من الوقوف،

عاد إلى فراشه وصمته. وبقيت هي تغرق إصبعها في قهوتها الباردة.

كانت مجهدة جدا كما لو أنها انتهت لتوها من درس طويل مع تلميذتها الغبية، وارتدَّت إلى ذاكرتها كلماته ودموعه، فاستسلمت لإغراء الكتابة، وأرْجت مشروع الرواية إلى وقت آخر تكون فيه مستعدة للارتباط بأصغر الأشياء حتى النهاية.

إنكم تنظرون إلى رجل لن يموت

لقد كان أسبوعا ثقيلا...

الأسبوع الذي سافر فيه إلى دبي؛ استجابة لدعوة أستاذ له إلى الاحتفال بذكرى ميلاده الثامنة والستين. كان لزاما أن يبتهج، يجامل، ويشرب نخب السنين التي لا تعني له أكثر من أرقام تـهمُّه عندما يدرس مشروعا. غادر الدمام رفقة أنور على خطة العودة بُعَيْد انتهاء مدة الحفل، ولكنه - لسبب ما- فضل البقاء لأيام.

الدكتور البريطاني إيريك الذي يربطه به أكثر من الطب هو عازف بيانو، ورسام سُريالي متمكن، وكاتب متنوع.

استراح لساعة في الفندق الذي نزل به، ثم خرج باحثا عن إهداء يناسب رجلا يحتفل بدنو أجله، فاشترى نظارة سوداء...

وفي قاعة متوسطة المساحة، تغلب فيها الألوان الزاهية، كان إيريك يجلس قبالة البيانو كمن يعترف لقسِّيس ويحاول إثبات عدم تأثير ربطة العنق على أنفاسه وتركيزه. وبعد أن

أنهى معزوفته الأولى وصفق الجميع، أشعل سيجاره الكوبيَّ، وقام يرحب بالحضور. قبل أن ينتصب تماما ليلقي خطبته، باغته فراس بابتسامته الماكرة، وألبسه النظارة. كانت جرأة منه أن يفعلها في وقت حرج كهذا. مع ذلك لم يأبه إيريك واستهلَّ بالتعليق على رداءة الرؤية، وشكره على المجيء.

انتشر البعض بعدها في زوايا القاعة. منهم من يشاهد لوحاته، ومنهم من ينظر إلى تسلسل صوره منذ الصغر إلى الشيخوخة. وبينما يقف فراس بإزاء لوحة مجهولة التاريخ مكتوب أسفلها «إننا متقابلان جدا.. كالسماء والأرض»، أقبل إيريك من ورائه يرحب به ويصف التغييرات التي طرأت عليه بعد لقائهما السابق قبل سنوات.

قال يشاطره السخرية:

- لا ترحب بي من الخلف، إيريك.

- أيها الشرقي المتعجرف، أنا أحيط بك من كل الجهات. هل تعلم؟

- نسيت! ذكرى ميلاد سعيدة.

سكت قليلا وعيناه تتشبثان باللوحة ثم أردف:

- الحقيقة أنني أكره الكلمات التي تقال حرفيا في المناسبات. كنت سأقول لك غيرها لو كنت أمريكيا متبسِّطا.

تناول إيريك نفسا عبر سيجارته ثم قال وهو ينفث الدخان في قفاه:

- لن تتخلى عن تناقضاتك المحببة إلي. أنا مستعد لسماع أية أمنية. لا بأس لو كانت بلهجة عربية إماراتية. فقد توهَّمت مؤخرا أنني أجيدها بسبب عيشي هنا. ولكن أعرني وجهك. أنت

بهذا تثير اشمئزاز الذين ينظرون إلينا. إنهم يقدِّسون اللياقة، والمجاملة المبالغ فيها.

مرّر أصابعه يتحسَّس نوع القماش الذي رسم عليه ثم قال:

- وهل أهتم؟ أنا الذي أنظر إليك أكثر منهم. لا أشعر بالفوقية يا سيدي. أنا بالفعل أنظر إليك. ثم إن اللياقة الكاذبة تموت. وحده الصمت المناسب يبقى.

والتفت إليه قائلا:

- وأنا أتأملك رسَّاما، خشيت أن تنتهي بطريقة بشعة. لوحتك هذه تذكرني بلوحة (حقول القمح والغربان) لفان غوخ التي يُظن أنه انتحر بعدها. أرجوك لا تفعلها.

ضحك بتهكُّم وقال:

- لن أفعل قبل أن أحب للمرة الأخيرة.

تسلَّم إهداء من أحدهم بلباقة، ورحب به ثم واصل:

- تلك التي تشاهد صورتي وأنا في العشرين معجبة بي.

- أتمنى ألا ترى بقية الصور. ألا تبعد النظارة؟

- كلا. فإن كنت تراني فحسب فأنا أضعك فوق عيني. ما وقوفك ههنا؟ ألا تتمشى معي لنتعرف عليها؟

- هيا.

لم يُلْهَم سؤالا مناسبا يستفسر به عما لو كانت اللوحة للعرض أم للبيع، حياؤه العربي أوقفه طويلا دون أن يضمن أنها ستكون له، ثم لم يملك أن يرفض دعوة المشي معه بعيدا عنها. يحدث أحيانا أن يولع برمز بسيط يمثل قيمة مجهولة في حياته.. بيتا من الشِّعر ، تصميما عمرانيا، لوحة تؤدي دور روحه بإتقان.

اللوحة كانت تضمُّ رجلا وامرأة يقعدان على سفرة عشاء ويتوسطهما صحن أبيض فارغ في ليلة يبدو أنها كئيبة

ومضطربة. بكل تعقيد، سلَّط فلسفته الصامتة على تفاصيلها البعيدة والقريبة، وهمَّ باقتنائها بأية طريقة.

كانت الشابة قد انتقلت إلى صورة أخرى يظهر فيها إيريك عند قرابة الثلاثين، حين استقبلها بحفاوة بالغة وقدَّم فراسا لها. استجابت لرغبته في الحديث معها، فدعتهما إلى طاولتها. وعلقت بإسهاب على روعة المكان والفرق الكبير الذي يجعله مختلفا في الصورة عن التي قبلها. ثم طلبت منه أن يحدثها عن إحدى اللوحات. فوقع اختياره على اللوحة التي جاءا منها:

- إن التعليق على الصور من أجمل هواياتي. هناك يا عزيزتي بجوار اللوحة التي تقف عندها تلك العجوز، لوحة لا يقف عندها سوى تاريخها المليء بالأحداث، لوحة لو لم أجد قماشها الفاخر ذاك لرسمتها على جسدي.

أشعل سيجارة، وقدم لها أخرى، وهو يسرد تاريخ اللوحة منفعلا مع تفاصيله: «لقد كانت لوحتي الأولى. رسمتها عقب موت زوجتي بعد زواجنا بسنوات قليلة. هل تعلمون سببا منطقيا يجعل الفنان فنانا؟ إنه الموت. اسودَّت حياتي بعد موت زوجتي وأقسمت ألا أتزوج بعدها. سخرت بقية عمري للعلم وللفن. ولا تندهشا إذا أخبرتكما بأنني لم أتعلم الرسم ولم أرسم لوحة قبلها. لأنني كنت حزينا وخائفا. هل أنتما معي؟ أم أنكما مشغولان بتبادل النظرات؟ حياة الفن يا أيها الشابان هي الحياة الحقيقية. إن الحب والزوجة والأولاد يموتون مهما كانوا كاملين وجميلين. إن كل شيء يفنى. لكن انظرا إلى لوحاتي هذه. هل تعلمان أنها ستعيش بعد أن أنتهي سنينا طويلة؟ هل تتصوران شابين مثلكما يتأملانها بعد ألف سنة؟ إنكم تنظرون إلى رجل لن يموت.. إلى رجل خالد...

أدرك أنه أطال، فقطع حديثه قائلا:

- هل صدقتم؟ لقد بالغت بعض الشيء.

أدرك فراس صعوبة الحصول على اللوحة من إيريك مباشرة. فخطط للحصول عليها من الآنسة جين فقال:

- يبدو أن الآنسة جين ترغب في الحصول على نسخة منها.

- حقّا؟ هي لها إذن.

ثم نهض إلى البيانو ليغرق القاعة في معزوفة هادئة.

قال فراس محاولا استنطاق الآنسة جين:

- إنه رجل ذو مواهب متعددة، ولكنه يبغض الشهرة. يحب الاستمتاع بلحظته طويلا. ها هو يناهز الستين ولم يزل حيويا كما هو في الصورة المقابلة.

- لا أخفي إعجابي به. فهو يلهمني أشياء كثيرة. هل تعرفه منذ مدة طويلة؟

بلل شفتيه بشربة ماء، ثم قال مؤكِّدًا:

- نعم.. لقد أشرف على رسالتي في علم الأدوية، واستفدت منه كثيرا.

- أنت تلميذه؟ توقعت غير هذا حين لمحتكما تتحدثان كصديقين. هل تأذن لي بالذهاب؟

- على أمل أن تعودي.

- سأعد هذه مجاملة شرفية. إلى اللقاء.

تحول العزف الممل بعد مغادرتها إلى بهجة. فقد كان إيريك يراقبهما بهدوء وينتظر لحظة افتراقهما ليملأ المكان بالصخب. شعر الذين حضروا بحماس الإيقاع، فتحلَّقوا حوله، وبدأوا ينتظرون انتهاءه لينفجروا تصفيقا.

وعند ختام الحفل، بعد تناول العشاء، عندما أفلت فراس من توديع أستاذه، كانت الآنسة جين ترتقبه عند الباب؛ لتطلب مقابلته خلال فترة إقامتها في دبي، فوافق طامعا في اللوحة التي صارت ملكا لها.

مهمة أكبر من الريح

إنها تمطر...

حقا، إنها تمطر. ومنذ يومين من عودته. ما حدث للسماء؟

الرحمات تهطل بأحجام أكبر، بحيث تستوعب شهوة الغرق الكامنة في مفاصله. إنه يغرق في كل قطرة ويمرِّغ وجهه بكل الغيمات السوداء. كم انتظر موعدا مع الله كهذا؛ ليتنفس حبه عن قرب ويصلي له كما لم يصل من قبل، يعتب عليه تأخيره للكثير من الأماني التي تولَّى زمنها، ولا يمل سؤاله عن والديه، يحدثه عن مشروعاته القادمة ويطلب منه العون؟

- ربِّ إنني أزكِّي؛ فارزقني أنثى تحميني.
- ربِّ كم أنا ضالٌّ لولا رعايتك؛ فلا تهملني.
- ربِّ أحبُّك.

يبكي بإسراف الأطفال في غياب أمهاتهم. فمن أحنى عليه بعد كل شيء من السماء؟ من؟ البكاء في المطر لا يخدش الكبرياء، إذ تتساوى ساعتها كل الحسابات في أعيننا، كما في المطر تتساوى كل المعاطف، الوجوه، وتنطفئ كل السجائر. حتى الثمينة منها. وفي المطر أيضا يولد أمل، ويموت الكثير

من اليأس غرقا. نحن في الحقيقة لا ندرك أن السماء فوقنا إلا حين تمطر، ولا نؤمن بأننا بحاجة إلى الماء إلا حين نجف!

وبينما يتعمق في لغة الأفق كصوفيٍّ، هبَّت رياح قوية حملت معها اللوحة التي بين يديه، وأخذت تقلبها على عشب الأرض لمسافات طويلة إلى أن اصطدمت بنخلة فارعة متقوسة كعجوز، واستقرت؛ لتدفُّق الريح عليها بلا توقف. الأمر الذي أغراه بالجري إلى أن أمسك بها وضمها إلى صدره. وهذا كان أول قدر تواجهه اللوحة وحدها معه. تابع أنور كل الأحداث، وعندما توقف يتفقد الإصابات في الإطار وبعض الملامح وكيف أن الدكتور إيريك كان محقا حين أخبره بأن قماشها فاخر، حمل إليه مظلته وأقبل يناديه بالدخول.

- سيدي، إن الجو بهذه الأحوال سيؤذيك!

قال بغضب شديد:

- من قال لك أنني أحتاج نصائحك يا غبي؟

تلبَّك أنور للحظة ثم عاد من حيث أتى وهو يحسب لغضبه ذاك ألف حساب. إذ لم يكن عاديا أبدا بعد عودته من دبي.

لشدَّ ما أقلقه أن يصل إلى حد يراقب فيه تصرفاته؛ لكي لا يشعر بالحرج من خدم البيت، خصوصا أنور؛ لأنه يحضر الكثير من محاضراته ويرافقه في أغلب الرحلات. فهو يرى ويسمع تصنُّعه هناك، ويشاهد طفولته وضعفه هنا. وهذا بات يشكل قرارا بعيد المدى بطرده كما فعل قبلها مع فوزي، الذي تطفَّل على تصرُّف عفوي منه ونسب الدافع فيه إلى افتقاره لزوجة!

وعندما تأكد من صلاحية اللوحة لأقدار أخرى، أوى إلى الجفاف؛ ليستدرك ما تبقى منها ثم دخل بها إلى المكتبة. هو

يعدُّها لمهمة أكبر من الريح.. مهمة لا تزال هاجعة في تلافيف دماغه.

تستمر النوافذ في نقل حالة الطقس في الخارج. إذ يشتد وقع أصابع السماء عليها فينتج عن ذلك نغم يجلِّل الروح بالخوف والطمأنينة في آن، ويأذن لحواس الشهوة بأن تستيقظ، فينام الضمير. تأبَّط جنونا ضخما ويمّم غرفة النوم. استلقى كمن انهدَّ بعد نهار عصبي ثم أخذ يقرأ لها.

«هل تنتظر مني أن أكفر بالمطر، أن أرفض رقصاته على أضلعي وأنا التي لطالما قلت: لو أنك على هيئته لأحببتك أكثر؟».

تنفس بعمق، ومسَّح عن جبينه ثورة العرق المفاجئ في يوم بارد، وبقي لدقائق يتقلب على الفراش كمن يعاني حساسية مزمنة... ومن تحت مخدة بين المخدات المبعثرة حوله، سحب جواله وأملى عليه عنوان صوت لا يقل إغراء عن صوت نافذته، وانتظر. لغويًّا كان بقاؤه على الخط إلى انغلاقه دون إجابة يسمى انتظارا. بيْد أنه بالنسبة له كان فرصة لإحصاء عدد الرنات التي يصدرها هاتفه أثناء مكالمة عقيمة. أصْمَتَ كل شيء، وانقلب على وجهه.

كانت السادسة مساء وهذا يبرر عدم ردِّها إن شرحته له بدون ارتباك فيما بعد. ومع نزول الظلام شيئا فشيئا، بينما يوجه رأسه إلى الجهة الأخرى من الكرسي، وتوجه هي وجهها إلى السماء؛ أقلعت السماء بعد أن ودَّعت الأرض مترعة بالماء والأمنيات البيضاء.

دثرت أخويها بأحلام صباح ليس من الوطن، واطمأنت إلى أن عسسها الليلي بدهاليز البيت لم يعد يجدي فائدة، وألا شيء

في الثلاجة غير أدوات أشرف الذي فشل في إصلاحها، فخرج ولم يرجع...

وبعد أن تفقّدت حاجات الجميع، مشت كمن لا يدري إلى أين سينتهي. وفي الغرفة، فوق مشروع روايتها التي لا تزال بيضاء، كان هاتفها منبطحا على وطن آخر لو كانت تعلم... عاودت الاتصال بعد أن نسي أمرها، وغرق في نومة مفاجِئة، فأحدث صوت اهتزاز هاتفه على زجاجة الطاولة التي وضعه عليها صوتا شبيها بأصوات الذين يجدون أنفسهم مقبورين إثر غيبوبة شُخِّصَت وفاة بالخطأ! لم يستغرب عودتها بعد ساعة من اتصاله. فهي الأنثى التي تختلف معها كل المقاييس، وهي التي تكون غامضة وشرسة في عمق وضوحها وطيبتها الصادقة، وهي التي قد لا تجد متسعا من الحياة لتلعب لعبة التثاقل التي علمتنا إياها الروايات والأفلام. انتظر إلى أن سكت ذلك الصوت المرعب. فتح رسالة جديدة وكتب فيها «سأعاود الاتصال لاحقا». وفجأة صار النوم ذا نكهة عذبة.

ثم غرقا في الصمت

قبل أسبوع كان برفقة الآنسة جين في مطعم هادئ، وكانا يتحدثان عن كل شيء تقريبا.

سألها:

- كم من الزمن يحتاج الحب عندكم ليكون واقعا؟

ضحكت على طريقتها الأشهى.. وعلَّقت بدهاء:

- ما يكفي لأن نعيشه وهو ما زال طازجا!

قال مازحًا:

- أدركت الآن لم مجانيننا أكثر من مجانينكم. إننا نتمتع بالكبرياء الذي يقتل الحب قبل أن نرى حقيقته.

ابتسمت قائلة:

- لا يوجد كبرياء في الحب. الكبرياء هو حالة نقص، والحب حالة كمال. لكنكم تحبون أن تكونوا شعراء قبل أن تكونوا عشاقا. هل أنا مخطئة؟

أجاب:

- أنت حلوة لا أكثر.

- إنني أسألك!

- إنني لا أعرف الإجابة. صدقيني. إن العرب أمة معقدة ومتشابكة. لا يمكن أن يكون لها تعريف واحد. إنها تتذبذب ولا تستقر. وفي نظري كل إنسان يحب أن يكون شاعرا قبل أن يحب. عربيا كان أم غير عربي.

- وما أنت؟

قال وهو يداعب أصابع يدها:

- أنا مواطن عالمي، كما يقول ديوجينيس سينوب.

هدأت قليلا.. ثم انفجرت ضاحكة. سألته ممازحة:

- وأين برميلك يا ديوجينيس الوسيم؟

ضم أصابعها إلى راحة يدها في شكل أسطواني. قال بهدوء:

- هذا هو برميلي!

- إن تعبيرك سيء. لكنني أستطيع فهمه. فأنا طالبة فلسفة على كل حال.

- ربما وسامتي تشفع لي.

- إنها تشفع لك ولكل ضعيفي اللغة في هذا العالم.
ثم غرقا في الصمت.

عاش مع جين ثلاثة أيام كانت عفوية إلى حد الدهشة. وقبل أن يفترقا همست في أذنه: «لقد أحببتك بقدر ما أحببتَ لوحتي. سأشتهيك حتى آخر يوم». وهو الآن يتقلب على فراشه ويقلب أمره مع نجوى. إنه يخطط له كما لو كان حربا.

الدراسة بدأت. نهض بنشاط اليوم الدراسي الأول، وأشرع نوافذ غرفته لرائحة المطر. إنها بالفعل تغري بالجنون. وفي جدول مواعيده المضجر منذ أيام، كان يندسُّ مشوار طويل سيكلفه النهار كله، فنَدَهَ أنور وأخبره بما يجب عليه فعله، ثم اتجه إلى الحمام.

هي في مثل هذه الساعة تعد إفطارا أو تنام بلا حساب. غير أنها كانت تمارس القلق بصورة جرحت شفتيها. أطلعتها صديقتها شمس على الأحوال الأمنية الجيدة في بيروت، وحرَّضتها على مُفاتحة والدها بالموضوع. ولكنه سيرفض بالتأكيد. لقد انتهت أعمالها في اللاذقية ولم يعد ثَمَّ مصدر للرزق سوى السفر إلى هناك، الرزق والأمن طبعا. ماذا تقول لرجل يحيا أيامه الأخيرة ليتحدى شهوة الهجرة؟ لم تملك إلا أن تفكر، هذا الشيء الوحيد الذي لا يسلبه منا الوطن بعد أن يسلب كل شيء. ألقى بها الفراغ في متاهة رسالته، فتساءلت: «من هذا الذي يخاطبني وكأنني أعرفه؟»، ثم أنَّبت نفسها على جرأة الاتصال برقم غريب قبل أن تتبين حتى من مفتاح دولته. ما فعلته هو أنها ظنته رقما يحمل خبزا تأكل الطير منه، يحمل فيئا وخيمة. فلم تكن تظن أنه لا يحمل سوى الحاجة إلى صوت.

سمعت طرقا غير مألوف على الباب فخرجت تستبشر بصباح ساخن تفوح منه رائحة الحياة... ونسيت أمره أيضا.

كان الطارق أشرف. بدا عليه اهتمام كبير بأمر ثلاجتهم، إذ دبَّر لها أسلاكا ومولِّدًا جديدا. شعرت حين رأته ببعض الارتياح، فهو يشبهها في الحاجة والشقاء، ومع هذا لا يجسر على أن يريها غير ابتسامته العريضة كلما رآها. إنَّ أشرف يصلح أن يكون أبا.

طلبت منه الانتظار، وأسرعت في إيقاظ خالد؛ ليساعده، وقصدت غرفة أبيها بقوة اكتسبتها من عيني أشرف الممتلئتين وضوحا وجرأة. وجدته يتلو في مصحفه الذي أهداه له حسان، فاستبشر حين شعر بقربها وناداها إلى صدره ثم سألها عن الصُّفرة التي تتلبَّس وجهها منذ فترة. بمجرد أن يسألنا آباؤنا عنَّا نكتسب صراحة الحديث معهم حول أي شيء. ترددت قبل أن تلقي الأمر بين يديه بالجملة. ولكنه لم يتردد في رفض توسُّلاتها وما وراء آهاتها من الرغبة في الهجرة.

- أبي.. إنني أبلغ من العمر أربعة وعشرين عاما. هل تضمن لي عملا أعود إليك بعده بخير؟ العام الدراسي انتهى. وما في حوزتي من المال لا يكفي لأكثر من شهر واحد. هذا إن أهملنا صراخ صاحب البيت إن كان لم يزل حيا.

اكتفى بالتخشُّب أمامها ولم ينبس بكلمة. علم أنه إن تكلم فلن يبقى على تراب وطنه لحظة، ففضل الصمت الذي عاش به، واستقال به، وسيموت به. وبعدما استيأست من جدوى بقائها على صدره، وتنبأت بحاجته إلى إشعال سجائره، خرجت تبكي، وعصافير وجهها لا تزال تفغر بأفواهها جائعة. فسوريا لم تعد عشًّا للعصافير.

وبينما تفتح جهازها المحمول، الذي راودتها مؤخرا فكرة بيعه، سمعت صراخات خالد وأشرف يبتهجان بنجاحهما في إصلاح الثلاجة! فعادت إلى لاذقيتها التي في صدرها، التي لم تخضع يوما للخوف، وتناولت مبلغا من المال أرادت أن تعطيه لأشرف. هكذا يجب أن نفعل عندما يسطو علينا الضعف. أن نتمسك بأول ضحكة متحدية، بأول عينين متجمدتين، بأول شخص أتقن إخفاء أحزانه عنا، أن نمتطي الحب، سواء أكنا بحاجة إليه أو كان بحاجة إلينا، المهم أن نتقبله بكافة أحداثه ونخبئ أسئلتنا عندما نراقصه ليلا، بقيت لساعة تتصفح روايتها التي اكتملت في بالها، ولم تبق إلا معاناة ترجمتها إلى كلمات على الورق. شعرت بالخوف لأول مرة ولثاني مرة، ثم انطلقت تكتب صفحاتها الأولى:

«لماذا تكوّرني الحياة وتدحرجني دائما؟ لماذا لا أستطيل معها على سبيل التغيير؟ فأجرب زاوية جديدة ووجعا آخر. مللت من ذات الحنين الرتيب الذي يشبه الكرة الأرضية وحفظت كل قوانينه حتى لم يعد يفاجئني. مللت من نفس الغيابات الباهتة ومن الشقلبة التي تنتهي بسقوطي في مركز الدائرة الذي يشبه بطريقة غريبة مثلث برمودا. كيف أشرح للحياة حبي لها دون أن ألتهمها وتلتهمني؟ كيف أشرح لها أنني متعبة ومخذولة وأن التسعة والتسعين فجرا لا يكفون لإنارة روحي؟ كيف أشرح للشوق أنني مشتاقة بأقل التعابير وأن شوقي اعتيادي كرائحة الخبز وعفوي كمطر تشرين؟ كيف أشرح لتكّات الساعة أنني ما عدت أنتظره وما عاد رجوعه يعنيني؟ وكيف أعتذر منه لأنني أكذب؟ كيف أجد الطريقة

المثلى لأصبح عصفورة؟ أنا حقا أريد أن أكون عصفورة مستطيلة إن أمكن!».

لكن إحساسا غريبا يعرقل حركة أصابعها وهي تكتب، ويبشرها بأن مصير هذه الرواية أن تمزق، إن لم تحترق بقنبلة مع الأيام. ولكنها تواصل الكتابة عبثا كأنها تتسلى...

أنهى أعماله بعد أن أوشك يذوب في لهب الظهيرة، ثم ذهب لمكتبه بقصد الراحة قليلا قبل الغداء. لا يجد تفسيرا طبيا مناسبا لغزارة تعرُّقه منذ عودته من دبي. لعله الجو الرطب هنا لا أكثر. سحب هاتفه من جيبه، وحرَّك إصبعه على اسمها الذي صار متأخرا جدا في قائمة المكالمات الصادرة والواردة والتي لم يتم الرد عليها. في الحقيقة لم يكن سوى رقمها من ضمن المجموعة الأخيرة. وبينما يجفف وجهه، جاء صوتها من أقصى التعب يسعى، فتناوله بكسل وهو يقول بصوت جائع:

- مرحبا نجوى. هل أنت بخير؟

بم تجيب على رجل اختصر كل حياتها في أول لقاء صوتي. قالت بدون تردد: نعم، أنا بخير.

- أعتذر عن اتصالي في مثل هذا الوقت.

أغاضها أنه يعتذر عن توقيته فحسب، وأنه لم يعرِّف بنفسه، فوجهت إليه سؤالا غامضا:

- هل يوجد مثل هذا الوقت؟

- الحقيقة أن الأوقات تتشابه بشكل مضحك في غياب العقارب. هل هذا يعني أن الظهيرة تناسبك؟

- ربما... من تكون؟

استدركَتْ:

- هل أنت صاحب الصندوق؟

ضحك بطريقة أشعرتها بالخوف، ثم ورَّطها:

- بل أنتِ.
- أقصد الجانب غير اللغوي من الموضوع.
- من كل الجوانب أنت صاحبته. لم يعد في يدي منه شيء.
- ...
- هل ستعدِّين عودتي إزعاجا؟
- قطعا لا.
- إلى اللقاء.
- ...

هو إذن! الذي ينعقد حول شعرها منذ شهر بلهفة الأطفال، والذي يحدث كل هذا الضجيج في عالمها بدون أن يرفع يده ويخبرها بأنه هو. لم يكن اتصاله مفاجأة بقدر ما كان أمنية منتظرة. ولم تشأ أن تفوِّت فرصة توزيع الوقت في انتظار عودته فرحبت بها. بها، لا به! فجدير بنا عندما نُعامَل بالغموض أن نفسر كل شيء حسب فراغنا، وما أوسع الفراغ في عينيها، ما أوسعه.

كان اتصالا سيئا بلا شك. فهو بتكلُّف واضح يعيدها إلى جوِّ الروايات وغلاظة قصص القرن الواحد والعشرين، وهي بصورة غامضة تمارس الوضوح معه، الأمر الذي يزيده إعجابا بأنوثتها. اختياره للموعد الذي لا يسع أحدهم فيه إلا أن يرد أو لا يفعل كان جيدا، لم يكن الأديب الذي ينتظر حتى الثانية ليلا؛ ليلملم كلماته، كان الطفل الذي يوقظ أمه من قيلولتها؛ ليسألها أن ترضعه.. أو لمجرد نفور النوم من رأسه.

نزواته في الأيام الأخيرة

ما تخافه هو أن تكتشف فيما بعد أنه لم يكن يريد منها إلا الأنثى التي تكتبها. يا الله، هل هذا نصيبها من الأدب؟ إما أن يحبها القراء نفاقا أو يحبوا شخصياتها أكثر منها.

توقفت عن الكتابة، وطلبت صوت شمس، لعلها تدفئها ببعض المنطق الساخر كما تفعل. وكمعظم محاولات القرب من هذه الصديقة، باءت بالخيبة وعادت إلى أوراقها...

قررت تجسيده في قصتها، والتعرف عليه من خلال صفحاتها. هو الذي لا يحب أن يعرفه أحد. إنه يتكوَّر الآن في بالها، يستعد لمواصلة الحياة معها طيلة الصفحات الكثيرة المتبقية، يساعدها في الانتصار على خوفها، يستحث خطاها إلى الفصول التالية. لم تتمكن من محاكاة شخصيته بالضبط. فهي تؤمن بأنه مستمر في التفتيش عنها من خلال كتاباتها، وإلا فما حكاية البكْلة الزرقاء التي لم تكن سوى نزوة خيالية تافهة دونتها في أحد المواقع؟

إنه ليس معجبا بأدبها كما تظن، بل هو معجب بطريقة تفكيرها في زمن لا يحسن الناس فيه التفكير إلا قبل النوم، ولو كان مجرد قارئ لعلَّق على نصوصها في الهامش كما يفعل الجميع ويتقنَّعون بأسمائهم المستعارة. لكنه تجلَّى لها كالبرق، وخاطبها بأحب الأسماء كحبيب. ضحكت جزيلا وهي تتصور أن تكون وقعت في حبه. ما هذا؟ إنه رجل يحب بطريقة الوطن؛ أن تموت على أرضه أو تكون مع المهاجرين الخائنين. ولم تكن بحاجة إلى الحب أصلا، كل ما أرادته أن تتجدد أفكارها برفقته قبل أن تغلق دور النشر أبوابها في وجوه الكتَّاب.

عاد إلى البيت عند المساء ووجهه محمرٌّ من الإرهاق، طلب عشاءه، اتجه إلى حوض السباحة؛ ليجوع أكثر. إدمان التعرُّض للماء يلازمه منذ سنوات وهذا هو سبب انتشار النافورات وأحواض السمك والثُّريات المائية في أرجاء بيته. وجد أن الماء هو أوفى المخلوقات على الإطلاق، وهو الذي ينتمي إليه الجميع، حتى الخائفين منه، والذين يحملون له ذكرى رديئة. وبينما يسبح... غاصت في عقله فكرة أكثر جنونا من السباحة ليلا، ألهمه إياها نهمه لسماع صوتها. ولـمَّا رأى الوقت مناسبا لطرق أذنيها، نادى أنور. أمره بتوصيل هاتفه بـمكبِّرات الصوت في أعلى المسبح وإطفاء الأضواء ما عدا الأزرق. إنها مخاطرة أن يجمع غرقين في وقت واحد ومسافة واحدة!. غادره أنور متعجبا لنزواته في الأيام الأخيرة، خصوصا بعد أن رأى تلك اللوحة وسعى في إيجادها.

بحث عن رقمها. ناداها وغاص ببرود إلى الأسفل الذي اختار أن يكون عميقا. غاص ينتظرها. وعندما ارتفع بلهفته إلى الأوكسيجين وإلى صوتها الذي يوهم السامع بأنها مستيقظة بعد نصف يوم من النوم، وجدها في انتظاره. هذا ما يفعله أبدا؛ يضع الجميع في انتظاره.

- أهلا.

- ظننتك اتصلت بالخطأ!

- كلا.

كلماته المقتضبة هذه تجبر الـمتحدث معه على الصمت أو الثرثرة. وهو يريد الثانية على الأرجح، فقالت تستفزه:

- متأكد أنك فارغ؟

- تـماما.

- أنت ترجعني إلى أحلام مستغانمي في (فوضى الحواس). كانت تبوِّب فصولها بمثل هذه الكلمات القطعية.

- من أحلام هذه؟

فعل معها كما يفعل الكبار حين يعطون الصغار قطعة شوكولا؛ ليقترفوا خطاياهم بعيدين عن أنظارهم. وبينما تفكر بطريقة شهيّة «مـمممـ»، هبط إلى الأعماق ليعود بغرق آخر يلقيه بين شفتيها. وحين عاد، كانت قد بسطت القول حول الكاتبة الجزائرية الرائعة، ووضعت يدها على خدها عجزا عن تفسير غيابه الطويل.

- أنت تتنفس كثيرا.

- حقا؟

- هل تسبح؟

- لا.

- ما تفعل إذن؟

- أبحث عن أحلام.

- قرأت لها من قبل؟

- أنت الوحيدة التي قرأتـها.

- أنا آسفة على ثقافتك.

واصلت: وأنت الوحيد الذي لم أقرأ له.

- أنا لا أكتب!

غمر رأسه في الماء، وعندما عاد لم يكن سوى صمتها اليائس منتظرا. ناداها: نجوى.

قالت بعد تفكير:

- ستحزن إن أكدت لك أن هذا ليس اسمي.

- أبدا. أستطيع أن أرى شعورك وأنت تسمعينه مني.

- تستطيع أن تصفه إذن.

ضحك، ثم همس لها:

- كقطَّة رومية مبللة.

- هذا مؤسف جدا.

سكتت ثم سألته بفضول:

- ما قصة أنفاسك المتسارعة؟ هل تعاني أزمة رئوية؟

ضحك مرة أخرى:

- أوه، هذا تشخيص رديء للغاية.

- معلوماتي الطبية لا تتجاوز ما يقوله الدكاترة لأبي. اعذرني، لقد تطفَّلت على صدرك.

- افعلي هذا كل مرة. وفي المرة القادمة بالذات.

- ستذهب؟

- بل سأعود!

كيف له أن يتحدث معها وكأنه يراها؟ يستحيل أن يكون هذا رجلا عاديا. إنه في كل مكالمة يحجز مكانه الفاخر من مسافة اهتمامها، وينجح. قررت هي ألا تلح عليه بأن يخبرها باسمه فاختار أن يشعرها بأنه يعرف كل شيء عنها...

على الأقل، أعانها على تجاوز ساعة لم تكن لتمرَّ بسلام وهي تعيش الفراغ الذي تركته شمس الـمي بغيابها المفاجئ. شعرت بذنب الثرثرة في حضرة رجل لا يقول إلا ما يجب قوله، ولم تعلم أنه لم يسمع إلا ما أحبت أن يسمعه. توافق عجيب يشبه ذلك الذي يتأمله كل ثلاثاء عبر مقرابه في نسيج الزمان والمكان العجيب.

لم تعرف رجلا قبله

لم يكن أشهى من صباح لبنان على قلبه إلا صباح صوتها الذي يأتي بعد غيابه كالعيد، فيمحو كل الانتكاسات التي تسبقه، ويغري بالجنون. علم أنها سافرت أخيرا. كتبت هذا الخبر في إحدى صفحاتها كأنها تستثيره. فحزم أمتعته على الفور وانطلق إليها...

أرسل إليها رسالة عندما وصل، فهاتفته منزعجة:

- هل تلاحقني؟

ردَّ:

- أنت في لبنان.
- وما شأنك أنت؟
- أليس من حقي أن أشمَّ صباح لبنان الفاتن هذا؟
- لكنك سافرت عندما علمت بوجودي هنا.

ضحك:

- أنا من قرائك المهتمين.
- وماذا تريد؟
- أن أعرف كيف حالك.
- أنا جيدة. مع السلامة.

همت بإغلاق الخط لولا نداءاته. سألته بغضب:

- قل لي ماذا تريد؟
- اسأليني عن حالي؟
- لن أسأل!
- يعجبني عنادك. هيا اسألي.
- لا.

نهض بكسل وفتح النافذة. قال معلقا:

- سأفترض أنك قلت. إنني بخير. أشاهد صخرة الروشة وأشعر أنني فنان. لك أن تتصوري كيف يقع الإنسان في حب مكان لم يعرفه إلا مرة واحدة، مكان لا يوجد به أحد يعرفه.

قالت متشائمة:

- صخرة الانتحار؟

ضحك بطفولة. تنحنح بجاذبية. قال:

- صخرة الحب.

- وجهان لموت واحد.

- أنت جريئة على الموت.

- وأنت جريء على الحياة.

- هل سنظل نتجاكر على المفردات؟ قولي لي هل أنت قريبة؟

سكتت.

- أقصد هل نلتقي؟

بدت له مسألة اللقاء عادية. لم يكن يحسب حسابا لغرض زيارتها للبنان. اخترقت غشاء الصمت الذي كاد يغلفها ويحيط بها:

- سأغادر غدا.

- أنا أيضا. يقولون إن أجمل اللقاءات هي تلك التي تكون بين سفرين.

- الحقيقة أنها بشعة هذه اللقاءات. سامحني مزاجي اليوم مولع بالمخالفات.

- لا بأس إن قلت لك نلتقي الساعة التاسعة أن تقولي: بل العاشرة. فرحلتي في ساعة متأخرة. إلى اللقاء.

كصياد ماهر، وضع عصاه أمام سمكته لأنه يعلم أنه تظهر له متأخرة قليلا عن نقطة التصويب. كطفلة سمعت أوامر كثيرة، لم تستطع إلا الصمت. صمت التفكير لا الموافقة.

ليس أمر لقائه -الذي سيكون الأول بالنسبة لها- ما يربكها، وليس الفستان الذي ستلبسه وتحب أن يراها فيه. إذ يحفل دولاب شمس بمسرح من الفساتين. إن ما يجعلها تشعر بالخوف والسخرية في وقت واحد هو أنه يعلم كل شيء عنها، تحرّكاتها، رغباتها، حاجاتها. حتى اللحظة التي يجب أن تصمت فيها والأخرى التي يجب أن تكثر فيها الكلام. الحياة مع رجل كهذا صعبة وممتعة. وفرصة الحصول على وفاق معه تعد إنجازا يستحق المغامرة.

وعلى سبيل التجربة، قررت أن تراه. هي لم تعرف رجلا قبله، وهو لم يعرف أنثى جريئة مثلها...

قضت النهار خارج بيت شمس، باحثة عن فرصة العمل التي سافرت لأجلها. كانت مشغولة البال به، تملؤ رأسها الاحتمالات الكثيرة، ولكنها تغلبت على خوفها وأصرت على لقائه.

وفي المساء، فتّشت في دولاب صديقتها عن ثوب، وخرجت إليه.

قيمة عصير الليمون هنا

ما فتئ عاكفا على التفكير في تلك الصخرة وما يمكن أن تقوله من عجائب. صمودها وسط الماء كجزيرة يعزز من ثباته

وسط معركته الأبدية مع حزنه، يعلمه أن يواصل قول «لا» كما فعل سبارتاكوس وغلب بها القيصر. تنهمر عليه مخططات كثيرة يصممها بدقة شديدة؛ لإدهاش الأنثى التي يعلم كل شيء عنها سوى ما يمكن أن تفعله إن هي علمت عنه شيئا واحدا.

كلَّف أنور بكل شيء، واستعد للسفر وهو ممتلئ أسى على ما يفعله بنفسه، وبذاكرته. أيعقل أنه خائف منها؟ أيعقل أنه يحتاج إليها ويهرب منها في وقت واحد؟

هي لا تعرف شيئا عن طبيعة هذا اللقاء، وعلى قلقٍ تتهيأ في فستانها وتتصفح خطوط يديها كمُقبِلة على الزواج. لم تتلق منه أية إشارة تدل على بقائه على رغبة اللقاء، إلى أن وصلتها رسالته بتفاصيل موقع المطعم وتشوُّقه إلى رؤيتها. الخوف الحقيقي منه لم يجمد أنفاسها إلا ساعتها، وكل الأسئلة حدَّقت فيها تلفتها إلى خفة عقلها، هل سيكلفها هذا المشوار الكثير؟ هل ستخرج منه بمشروع صالح للحياة؟ هل منطقيٌّ كل الذي تقوم به؟

قالت لصديقتها:

- رافقيني، شمس.

رفضت:

- قد أسرقه منك. إنه لا يصلح إلا لي.

شربت نصف قارورة من الماء، وتناولت حقيبتها من يد شمس، ثم خرجت... عادت بعد دقائق خائرة القوى كمن يحاول شرب أول سيجارة في حياته، تقول بقلق:

- لا أريد لهذا اللقاء أن يحدث.

- نجوى! إنه ليس أكثر من رجل. لا تخافي. كلهم يخشون اللقاء الأول ويتظاهرون بالعفوية. لا تفسدي مزاجه. وقد تعودين

بفصل كامل لن يكلفك التفكير طويلا أثناء الكتابة. لا بد أن نرغم أنفسنا على الحياة. كفاك موتا يا صديقتي.

تشجعت ثم خرجت إليه.. وفي الطريق، شيء أشبه بالإعصار اجتاحها وهي تهاتف مسؤول الموظفين في دار النشر تلك فيعتذر منها ويعطيها أسبابا غير مقنعة. من يخبرها أن سفرها إلى لبنان كان غلطة؟ وأنها لو بقيت في البيت لأسبوع على الأقل لتمكنت من الحصول على عمل لدى نفس العائلة.

وعند باب المطعم، تذكرت أحلامها التافهة التي لم تكن تطمع إلا بمجرد الوقوف بدون أن تنهي حياتها رصاصة. وفقا لتعليمات رسالته، وجهت عينيها بقلق إلى الطاولة المذكورة، ولكنها كانت فارغة منه. فسَّرت الموقف بطريقة مؤسفة، ونسبت تأخُّره إلى مجيئها المبكر. قعدت بهدوء وهي تحاول أن تسترجع كل تمارين الاسترخاء الداخلية، طار من عينيها عصفور فرج حين سمعت صوتا يناديها باسمها بينما تفرك بطن يدها اليسرى بأصابع يمناها، ولكنه سقط ذلك العصفور -كما تسقط العصافير إثر انفجار- حين تبيَّن لها أنه كان النادل. أخبرها بأن الطاولة التي تجلس قبالتها جاهزة الطلب، وسألها إن كانت تحتاج أي شيء آخر. لم تسأله عمن وراء كل هذا؛ لأنها توقَّعت أن يفعلها. ولكن ما كان يخيفها هو احتمال كمونه لها في طاولة أخرى. يا لثقل الدهشة حين تكون مبتذلة!

اكتفت بالدعاء على نفسها وقراءة قائمة الأطعمة والمشروبات في الكتيِّب لعلها تحسب كم سيكلف العشاء. أخرجت هاتفها من حقيبتها واتصلت به...

أجاب بعد أول رنّة:

- صغيرتي التي تشتمني الآن. أنا حزين جدا.

ابتلعت سؤالا لم تحب أن تسأله إياه، ثم قالت ببرود:
- وأنا سعيدة.
ضحك بمكر:
- صحيح، نسيت أنك مولعة بالمخالفات الليلة. هل تنتظرينني؟
- أبدا. ما أرجوه هو أن يكون ثمن العشاء مدفوعا. لم أجلب معي سوى قيمة عصير الليمون هنا!
كانت تخشى أن يرد على اتصالها؛ لأنها لم تكن مستعدة لقول شيء. كيف ستواجه الآن نظرات الآخرين؟ أنثى عشرينية تتعشى في مطعم لوحدها. هل ضمن هو ألا يفكر أحدهم بالعبث معها؟ هل تيقن من أن غيابه سيغطِّي كل شيء ويكشفه في آن؟
كانت رسائل شمس تهطل على هاتفها بكثرة. بعدما أدركت أن كونه مجرد رجل كفيل بأن يضيعها إذا لم تتَّزن في تفكيرها وتقليبها للأمور معه. ولكنها ادخرت حرقتها وغضبها إلى حين عودتها؛ لتورّطها بمشورتها الحمقاء.
وكما يفعل زائرو هذه المطاعم، أكلت قليلا ثم همت بالذهاب، إلا أنها كانت صادقة في عدم اشتهائها للأكل ساعتها. كيف تجرؤ؟ وخالد وغسان يأكلان الفضاء في غيابها؟ وأبوها يستلقي على كرسيه جسدا بلا روح لا يقيمه ويقعده إلا حنينه إلى علبة سجائره. إن ثمن الطعام، كما افترضت أن يكون، كان يكفي لشهر من التمتُّع بالعيش الكريم بدون انتظار صحن عابر من جارة أو رصاصة تنهي حياة الذل.
جاء النادل يسألها عن حاجاتها، ثم أخبرها أن على الكرسي المقابل شيئا يخصها. طلبت تفاصيل الحساب فأخبرها أن كل شيء مدفوع، وأن المطعم يتشرف بعودتها لزيارته مرة أخرى.

«في الأحلام» قالت في نفسها وهي تمدَّد جذعها وترفع رأسها في محاولة لرؤية ما تحول دون رؤيته درجة الإضاءة وعيون الناس. قامت وقد ضجرت تماما من حياة التكلُّف التي عاشتها للتو، وتناولت اللوحة التي كانت منكبَّة على تاريخها الحزين، تناولتها بخيبة. كادت تبكي وهي تقرأ «إننا متقابلان جدا.. كالسماء والأرض». لماذا أهانها بكل قسوة؟

سأتحداه.. هذا المجنون

عاد إلى بيته ليلتها كقطعة حديد. خاليا من نفسه ومن طبيعته. ترك وراءه فرصته الأولى والأخيرة لأن يعيش في سلم مع غرائزه. إلا أنه توهم تعاليه عن ذلك، وجبن في اللحظة التي كان بإمكانه أن يزرع فيها عالما آخر. عاد، وما من أنثى تنتظر وتنتظر الدنيا كلها معها مثل نجوى.

في بيته، كان الجميع مستعدين للانقياد للأوامر! لا حب، لا عفوية، لا صدف، لا نقاط ضعف. كان بيته جحيما بأبواب جنة. كان كوخا خاويا برغم جماله.

تجرَّعت نجوى تلك الليلة ألما كثيرا. أحست بلعنة الوطن الذي يتقلب في جهنم فوضاه، ولعنة عائلتها.

عادت إلى شمس مغلوبة، رمت باللوحة قائلة:

- خذلني.

قالت شمس تواسيها:

- خذل نفسه. توقعت حدوث هذا.

ثم ناولتها قارورة الماء التي نصَّفتها قبل أن تخرج، فكأنها تنبأت بعودتها على العطش. واصلت:

- لا تبتئسي يا حبيبتي. هذا النوع من الرجال هو من يعلِّم الحب!

- أنا لا أحبه. لكنه يتحدَّاني.

- إنه فقط يهيِّئك لتكوني جاهزة لإدراك حاجته إليك. للإحساس بنهمه وفراغه. يفعلون هذا عندما يفلسون من الأمنيات.

قالت وهي تناولها أقراطها:

- خذي أقراطك. إن وطنا أكبر منه وأشد إفلاسا يحتاجني. مع هذا سأتحدَّاه.. هذا المجنون.

همست في أذنها:

- أنتظر بكل لهفة الفصل الذي يخصُّه.

أعادت إليها فستانها. ارتدت فستان شقائها الذي فاحت منه رائحة الحياة الحقَّة حين أمست فيه. أخبرتها بأنها لم تعد بحاجة إلى البقاء في بيروت. واكتشفت أنه رجل لن يطيق «*مهارة أنثوية لضبط الإيقاع*» إذا كان من شأنه أن يرقص على وقع نشازه.

دهشة باردة وموجعة

بعد أن تلعثمت أقدار نجوى في وجه صراحتها وإقدامها، قامت باستنطاق أقدارها الأخرى الجاهزة دائما للاستعمال،

وعادت إلى وطنها الذي يغلي. قفزت فوق كرم شمس، وهدوء العيش معها، إلى حيث تكون حرة وجائعة كلبؤة. من لطف الله بأبيها وإخوتها أن يسر لهم عناية الجيران الطيبين الذين يبتغون التصدُّق عن شهدائهم. الأمر الذي أسعدها قليلا وقد توهمت أن تعود إلى رميم من الأحلام المتآكلة. كبر خالد في غيابها. هذا ما تفعله الحرب بالأعمار. كبر واكتسب مهارة الصبر من صمت بيتهم وسط كل الأصوات التي يلتحف بها. كبر ونبتت له عوارض إرادة وبزغ من وجهه حزن أخيه حسان بسرعة. وغسان كبر أيضا. أما أبوها فهو على حاله، يستلقي على فراشه ويدخن، إنه أقرب إلى التمثال الجامد منه إلى الإنسان المتحرك المنفعل. سلمت على أخويها واحتضنت فيهما وجه حسان ووجه أمها الحاجة لطيفة. فشعرت بالأمان والطمأنينة. ثم دخلت غرفة أبيها تزف إليه فشلها في الحصول على عمل...

جرَّت خطاها إلى خارج غرفته المشتعلة بالكآبة، وتوارت بسواد غرفتها لعلها تنير بعض الصفحات التي يشغلها أمرها. خارجة لتوِّها من الهزيمة التي جعلت لحياتها طعما آخر، ومن تحدي الرجل الذي أوشكت أن تكرهه حين كانت تريد أن تحبه، ومن غيبوبة دهشة باردة وموجعة في الوقت نفسه.

لم يسعدها أن تضطر إلى الحديث مع نادل يتفحص ملامحها آسفا على وجودها في المطعم بلا رجل. كلا يا فراس، ليس مدهشا أن نكتشف أننا نكلِّم إلـهًا يحتجب عنا ويسيِّر كل الأحداث في صالح الشهادة بقوته وقدرته. إن هذا لهو العذاب.

حزينا كان جسدها كنخلة أندلسية، بينما كانت تخاطبه في المرآة. فتشت في جوالها عنه لكن صاعقة غيابه أعادتها إلى أوراقها تبحث عن جواب...

لا تعرف هل الحنين أم الحقد ما يقودها للتفكير فيه بعد أن قررت إهماله؟

حقا إنك متخلف

لم تجد بُدًّا من تقسيط بيتهم للحاجة، فبدأت تفصّل أثاثه على حجم الجوع كل يوم... أي وطن هذا الذي يأكل أخضرها ويابسها؟

ألم تقل يوما لحسان: «الأوطان قصة خدعنا بها»؟ نعم، لقد كانت محقة. إن أوطاننا الحقيقية هي أجسادنا التي نسكنها، هي نحن، وليست أرضا وجدنا آباءنا يعبدون ترابها ويأكلون منه!

رأت أن تبيع سجادة يدوية كانت تجد فيها ريح أمها؛ لضرورة العيش. لا يجدر بنا أن نكون أدباء في كل أحوالنا. سوف نموت ونحن نتذوق روعة الاحتفاظ بشيء لم يعد ذا فائدة.

لا يكف غسان عن الشكوى من أي شيء، مع أن خالدا بدأ يتعقل قليلا ويتعامل مع الأحوال بنوع من الثورة. وأبوها سيجن إن نفدت علبة أنفاسه الأخيرة. وهي... هي اضطرت أخيرا للكتابة على جهازها المحمول؛ لافتقارها إلى ثمن ورق أبيض.

اقتحمت صباحه اليوم برسالة عتاب. رأت أن تكتب له قبل أن ينساها. ضحك عندما قرأها. وقبل أن تقنط من صوته أمسك بذيل أملها الأخير وصافح كسل صوتها الذي كان مكبَّلا بثقل نوم عميق. قال يسرق منها بداية الكلام:

- لا أحب قراءتك إلا عندما تكتبين لك، وليس لي!

- أنا أكتب فحسب. لا أعرف لمن. إنك قارئ لا يجب أن أتمنى مثله.

قذف بفضالة قهوته في فمه مغمض العينين من مرارتها. ضحك كمن فهم كل ما ترمي إليه. قال يلاطفها:

- ما أحلى صوتك، نجوى!

تلبّكت قليلا، وقالت:

- أحزر أنها تعني مع السلامة.

- لا.

- إن صوتي ليس حلوا.. وأنا لست حلوة. أنا بشعة. فلتخرجني من حياتك.

- نجوى.. هل جربتِ أن تكوني أمًّا؟

اندسَّت في غطائها الثقيل تحاول أن تتمسك بسؤاله هذا الذي يكافئها على كل ما تقوم به. لكنها أجابت بقسوة:

- حقا إنك متخلف.

انفرط الوداع من فمه كقبلة ابن:

- سأسألك أن تعودي للنوم. أنا سأذهب.

عادت إلى استنوامها الذي سيشغلها عن البقاء بلا شغل وهي تفكّر بصوت عال في بيع الدولاب الذي سيكون لقمتهم هذا الصباح...

كقوس المطر

يوما بعد يوم، وجوعا بعد جوع، يمتلئ بطن غسان، وصدر أبيها، ويخلو البيت، يخلو خالد، وتخلو هي...

كانت ذلك اليوم ناضجة تفوح من جسدها فتنة الظهيرة وتترك رطوبة الساحل على بشرتها برودة لذيذة. كانت تعُدُّ أريكة تركية باعتها، بينما يدخل خالد مع العمال ويساعدهم على حمل الأمتعة إلى خارج هذا الوطن وخارج الذاكرة. ويريح أشرف ظهره على جدار البيت ويبكي بصمت ويرثي لحالهم. إن أشرف رجلٌ يحب ويتمسَّك ليس لأجل شيء سوى رحمة قلبه.

يرقد أبوها في غرفته وسيجارة بين شفتيه، ويتفطَّر قلبه كمدا وهو لا يملك أن يفعل شيئا. هذا هو الوطن الذي ضحَّى من أجله بجسد نجوى وروحها.

جاء ذلك الرجل الأنيق، يلبس نظارة سوداء وبذلة سوداء وحذاء أسود، وسيما كان كقوس المطر. يخضب جانبيْ رأسه باللون البني ويكثر تحريك فمه بغير الكلام، نزل من سيارة صغيرة متواضعة، وكانت تمشي خلفه حاملة أثاث فارغة. نادى خالدا بلطف وذكاء، وأعطاه مبلغا من المال لا بأس به، وأرسل معه عاملين يحملان ما يريد. عاد خالد بعد عشر دقائق يتقدمهما وفوق رؤوسهما سرير نجوى الأوسع من كل السماوات... وبعد أن تم كل شيء كما خطط له، وفي غفلة من اهتمامها ببضع ليرات لا تسمن ولا تغني من وطن، ناول خالدا شيكا بمبلغ كبير جدا من المال. عاد كما يعود كل مرة ممتلئا بذاته وفارغا من نجوى، وعاد معه بذاكرتها ومشاغباتها، عاد بها!

حمل خالد الورقة إليها، وقلب أشرف يتمزق كلما ابتعدت السيارة التي تحمل سريرها إلى بيت خارج الوطن. لطالما تمنى أشرف أن يملك ثمن حذائها، لطالما سأل الله أن يمن عليه باهتمامها.

كانت ساعتها بين الحياة والموت تبحث في غرفتها عن السرير، وتصيح: «أين سريري؟». ويجيبها غسان: «خرج به العمال! »، دخل خالد الغرفة وهي تكاد تخسف بغسان الأرض، ناولها الشيك، قال ببراءة:

- اشترى الكرسي أحد الرؤساء!

أمسكت بوجهه تجرُّه:

- يا غبي، ماذا أفعل بك؟

وأخذت تضربه.

لم تستطع تصوُّر أن يبيت فراشها في بيت تاجر لئيم قد يضاجع عليه أحلام أخرى، فكرت ببيع كل شيء يباع ما عدا فراشها وحذاء حسان، هذه هي المجد والتاريخ وهذه هي الأشياء التي لا تعاد إلى الذاكرة إذا أعيد الخشب والحديد.

وحينما كاد الضرب يطفئ خالدا صاح في وجهها:

- لا ذنب لي. إنه فراس. بلِّغي عنه الشرطة إن شئت.

توقفت وتخشَّب جسدها كمن أصيب بالكزاز، انطفأت عيناها، انطفأ جسدها، تراجعت برأسها إلى الحائط وهي تقول كأنما يغمى عليها:

- إلى أين سيصل هذا الرجل المتخلف؟

لأجل كرامتنا يا أبي

تنافق الأنثى زوجها، أمها، أحيانا أولادها. ولكنها أبدا لا تنافق فراشها. ما من مكان أقرب إليها سوى السرير الذي يحمل

أثقالها وأحلامها وتاريخ جسدها؛ عمره، دفأه، عطره، فضلاته، خصلات شعرها، أظافرها، ورسائلها. ستتخلى إحداهن عن المكان الذي تنام فيه، لكنها لن تتخلى عن الفراش الذي تحلم عليه، والذي تمارس عليه نهارها وليلها. وفراش نجوى. ما فراش نجوى؟ إنه كل شيء بالنسبة لها. بيد أن خالدا، الذي لم يؤمن بالأنوثة بعد، لم يجد فيه أكثر من سلعة يبيعها ويأكل من ثمنها. إنها هزيمة لا تشبهها هزيمة، أن يبيت جزء منها في بيته، هزيمة لا يشبهها إلا الموت على الفراش في زمن الحرب. قرأت الشيك وأخذت تعد الأصفار التي توقفت عندها مهارتها في الحساب بعد أن اقتصرت على الصفر والصفرين. إنها ميزانية شعب! هل يهزأ بها هذا المغرور؟ هل يرشيها لتترك وطنها وتنغمس في جنونه؟ هل يعبث بها؟ هل يساوي فراشها إمضاءً خاطفا بقلمه ذات ظهيرة؟ هل يساوي ذلك حقا؟ كم تساوي هي إذن؟ بعد أن تحتَّم عليها أن تنام على الأرض وفي جيبها ما يمكن أن تعيش به في قصر كالذي يعيش فيه؛ لا حياة به. ما ستقول لوالدها الذي يدخن سجائره الرخيصة؟ هل تخبره أنها ستشتري له غليونا فاخرا وموتا جاهزا وباردا؟ خبأت شيكه بعيدا عن متناول جوعها، وخرجت تشتري بثمن الأريكة عيشا كريما.

هو فراس أبو القاسم. سمعت بهذا الاسم من غير واحد ولكنه الوحيد الذي لا يملك الصوت الذي ينطقه به؛ لأنه لا يذكره إلا حين يعقد صفقة أو يوقع عقدا. إنه مجرد علامة تجارية، على حين تخلو روحه من اسم وتعيش في كهف خوائها وجوعها أيضا. اضطر إلى إبراز هويته بعد أن عاملته باللامبالاة

والسخرية التي لا تقل ضررا عن سخرية شوبق. ولا بد أن يبرز وجهه يوما، إلا أنه سيكون فاترا وقديما.

إننا نندهش. نفعل هذا؛ لأننا نفكر، ولكن حد دهشتنا يتوقف عند حد إرادتنا. فما نسمي ما هو فوق إرادتنا؟ لا بد أن ننسبه إلى القدر، إلى الطبيعة، نبعده عن إدراكاتنا.

هل كل ما يريده منها هو الإيمان؟ لقد آمنت به الآن. فليبحث عن أم تحبه ببشاعته وسوء خلقه. وحدهن الأمهات رزقن هذا النوع من الصبر.

خرجت تنتهز هدوء الطرقات وانفتاحها للحياة مرة أخرى. أنثى يتيمة الفراش كسلحفاة أخرجت من بيتها، كحمامة شرِّدت عن عشها. تمشي وتدور حولها المآسي وتتوقف الأرض. تتوقف؛ لتسخر من كل قوانين الحركة والجاذبية. إنه بلد كالفضاء يتطاير فيه كل شيء. في السوق بدا لها الجميع متجهمين ومتذمرين. النداءات على البضائع صوتها منخفض، المساومات لا تنتهي بالاشتباك غالبا، ولا أحد يلعن، لا أحد يتمسك بأول مشتر، لا أحد يهتم. الأبواب مصمتة على حزنها، والعربات تتحرك بتثاقل، والجديد أن «ورحمة فلان» أضحت تقال أكثر من «وحياة فلان». الملابس المنشورة التي كانت ترطب الجو استبدلت بالملامح المعلقة على البلكونات. فالكل فضل أن «يصنْفُن» ورأى أن هذا خير له من الحديث مع أحد. تمشي الأنثى هناك ليست خائفة من شيء سوى أحلامها، وهي كانت تمشي بلا أحلام وترهق جسدها؛ ليرتاح على الأرض. كم كانت الحياة بعد فراشها صعبة ومزعجة. اشترت ما تغري به خالدا؛ ليسامحها، وحملت لغسان خبزا وبيضا وزعترا والكثير من دعوات البائع الذي طال انتظاره لرزقه. لمحت أشرف وهو

يجوب ساحة السوق كنَسْر فقد جناحيه وينظر إليها بحاجبين منكسرين. هل تُراه تعلق بها كما يفعل الذين يعرفونها دائما؟ ومن قريب، بينما تمشي إلى البيت، نادتها جارتهم الثرثارة تسألها عن الرجل المرتب الذي رآه أولادها ظهيرة اليوم، فناولتها كلمات مقتضبة، ووعدتها بالحديث معها عبر النافذة ليلا. شهوة الحديث إلى الثرثارين هي ما يجب أن نتمسك به هذه الأيام. إن حياة الصامتين مملة ومضجرة...

أنهت مكالمة طويلة مع شمس ثم قصدت النافذة التي تؤدي إلى ثرثرة جارتهم حميدة التي تشبه الدجاجة. إنها تهوى الحديث الفارغ هذه الأيام، لقد أتعبتها الهموم والأسئلة الوجودية، لقد أتعبتها صلواتها التي لا تستجاب.. حميدة ستحدثها بلا شك حول آخر الأخبار السياسية التي نقلها إليها زوجها الإعلامي، وآخر الأعراس وآخر المواليد في الحارة وآخر مرة فكرت بزيارتها لكن أشغال بيتها أعاقتها. أليس جيدا أن نعثر على شخص يؤخرنا عن مواعيد حزننا هكذا؟ لم تفرغ من الإنصات باهتمام لأحاديث جارتها إلا بعد ساعتين، عندما وجدت أن برتقالة عقلها تختزن عصيرا طازجا من الأحداث والتفاصيل التافهة.

انتهى ضياعها إلى ضياع أبيها. لا يجتمع ضياعان إلا ليصنعا هدى. مشت بخجل نحوه تقبض بيدها على رقبتها، وتبحث في صوته عن كسرة حل. سألها بصوت بعيد الحزن:

- هل بعتِ كل شيء؟

قالت تتخلص من إعاقة لفظية تقمَّصت لسانها:

- لأجل كرامتنا يا أبي.

دنت منه بارتباك الأطفال. أمسكت بيمينه تفركها بلطف. فاستعان بيدها ليقيم ظهره، ثم قال لها وهو يمسح على شعرها بيديه:

- جائعة يا ابنتي؟

نبتت دمعة من عينيها الصغيرتين، ثم انحدرت ببطء أنفاسها. لم تجد الكلمة التي تفي بإجابتها فصمتت.

قال يحمل عن فمها همَّ الإجابة:

- أنا جائع أيضا

تنفس بصعوبة، ثم واصل:

- وأخواك جائعان. وكذلك الزرع الذي هناك.. كلنا نشعر بالهوان والجوع ما دمنا هنا. ترابنا وحده قد أُتخم بالأجساد وعار العروبة وتآمُر الآخرين. ترابنا الذي تحول فجأة إلى مقبرة لا حدود لها. ولكن هل سنشبع إن لم نكن نرى الذين هم أشد جوعا منا؟ والذين هم أكبر بؤسا وشقاء منا؟ والذين هم أقرب إلى الموت منا؟ نحن نجوع؛ لأننا كنا نشبع. ما بال أولئك الذين لم يشبعوا قط؟ جوعنا هذا يفسر رغبتنا في التخلي عن هذا الوطن. يستدرج ضعفنا إلى حيث نبقى أجسادا بلا أرواح ولا ذاكرة. ونجوع لأننا اعتدنا الشعور بالحاجة للأكل عند موعد الوجبة التالية، ليس عند موعد الجوع التالي. سنموت حتما عندما تنتهي طاقاتنا على الحياة. ولكن هل نصبح غرباء والوطن لم يزل يعيش في حواسنا؟

علق على جبينها قبلة عسكرية ككل مرة، وربت على خديها وهو يضمها ويسألها أن تبقى قوية. سكب في قلبها دعواته وقبله، وحملها ابتساماته الباكية، ثم أعاد ظهره إلى وسادته وهو يطقطق من شدة العجز.

شفتاها ترتجفان

بعد أيام وصل سرير نجوى إلى بيته بكل روائعه وأحزانه. أمر أنور بحمله إلى الغرفة المخصصة له، وأشرف على ذلك. وبعد أن انتهى من كل شيء، غلَّق الباب، ثم التقط أنفاسه كطفل حصل على لعبة بعد طول يأس. وقف طويلا بالقرب من مكانها فوق زرقة فراشها وأحلامها. وقف يتنفسها عن كثب، يحدثها، يمسح بأصابعه على الحفرة اللطيفة التي صنعها مرفقها على أحد الجانبين. بدا له أنها لم تكن تنام عليه أكثر مما كانت تصحو. عذبة كانت رائحتها فيه كزهرة ملكة الليل. شرسة كانت وقوية حتى في غيابها عنه. خلع نعليه وكبرياءه ونظارته العمياء واستلقى عليه بكل الحنين والحاجة. من يشبهه الليلة وهو أقرب ما يكون إلى نجواه؟ من؟ وبعد لحظات من الشعور بالغربة، دفن وجهه في وسادتها وأذن لروحه بالهدوء والراحة. نام بدون أن ينتظر أربع ساعات مفعول عقار منوِّم.

يا له من متشرد. يا له من طفل!

إنه يستمتع بالأشياء بطريقة بدائية. منفعلا مع إدراك مكانتها من حياته، ومتمسّكا بها كما لو أنها الفرصة الوحيدة التي تبقت له. هذا ما علمه اليتم والمال.

أليس النوم مع أنثى في غيابها يشبه النوم خلف أم؟ في كلتا الحالتين ستكون بعيدا عن إحداهما وقريبا من نفسك، فارغا من نفسك وممتلئا بإحداهما.

حقيق به ألا يستيقظ أبدا ما دام وجد رائحتها أخيرا، وحقيق بها ألا تنام وهي محاصرة بنهمه وقسوة حبه الأناني. عليها إذن أن تبدأ فصلا جديدا تقتله فيه وتتخلص من عقده.

يقول: «الوطن هو أن تنام وأنت راض عن نفسك». هل جرب الوطن ليستلهم منه كل هذا؟ هل تنفس حقيقته؟ كيف يمسي سرير نجوى وطنا؟

يغمض عينيه الإنسان عمره كله، ولكنه قطعا لن ينام إلا نومة واحدة يبحث عنها كل حياته، يشتري لأجلها المنبّهات! يتعاطى الحب، يكتب، يقرأ، يبيع، يشتري؛ لعله ينام نوما حقيقيا.

تسلق فضوله الصباحي حواجزها بعد أيام من الصمت:

- كيف أنتِ؟

فرحت بعودته، لكنها كتمت فرحتها، فأجابت ببساطة:

- منيحة!

علق قليلا على إعجابه بطريقة نطقها للكلمة، ثم قال:

- لم أقرأ لك منذ آخر مرة.

- أظنك اكتفيت بما أنها كانت المرة الأخيرة. مشغولة حاليا برواية.

صفّق ساخرا وهو يقول:

- رواية بطعم الانتقام؟

- كلا. إنها بطعم الشوكولا.

استدركت:

- أتعْلم؟ أتمنى أن أرى شجرة كاكاو.

- سأدعو لك بالتوفيق.

سكت للحظة. ثم استأذنها على عجل. ووعدها بالعودة عند المساء...

كان على الخطِّ شوبق منتظرا. أراد أن يخبره بأنهم ألقوا القبض عليه مرة أخرى، وينبهه إلى إفلاسه من كل سبل

الخروج. لا يكف شوبق عن إحراجه، فبعد كل غياب، لا بد أن يحضر وتحضر معه مصائبه، مصائبه فحسب. اعتذر بوضوح عن عدم رغبته في مساعدته. احتبست لعنات شوبق ساعتها وأغلق الخط. ودَّ لو أنه استلطفه بأسرته التي ستضيع من بعده، ودَّ لو أنه بكى ليعتذر عن غروره الذي زاد عن حده، ودَّ لو أنه اعترف بذنبه. إلا أنه لم يفتح معه مجالا لإكثار الكلام. سيخرج بطرائقه التي يخرج بها كل مرة؛ الكفالة، التهريب، الرشوة. أو يسجن لسنتين ثم يعود لممارسة رذائله. ستفقده زوجته وترتاح من مشاكله، سيجد أولاده فرصة ليكونوا مشردين مثله، ستنساه زوجته، ستكره مزهرة أولاده. هكذا انتهى زملاؤه وبدأوا. ظنوا أنهم بدخولهم شرايين الناس، وجيوبهم، سيدخلون قلوبهم. إلا أن واحدا منهم لم يحظ بحبهم ولا بزياراتهم في السجن.

عاود الاتصال بها بعد مكالمة شوبق، فردت بلهفة:

- أهلين.

- نجوى، أريد أن نلتقي.

- لـم؟

- لأنني اشتقت إليك طبعا.

مطّت شفتها السفلى تستنجد بكلمة. قالت ببساطة:

- أنا لا أعرفك.

- ماذا؟

سألها، ثم انفجر باكيا.

- هل تبكي؟ أنا آسفة. لكنني حقا لا أعرفك. إنني حتى لا أعرف اسمك.

- ولكنني أعرفك يا نجوى.

- هذا لا يكفيني.

- ما الذي يكفيك؟
- كل هذه الظروف اللعينة والحروب تكفيني.
- سأنتشلك منها.
ضاحكةً قالت:
- لا أريد. لقد أدمنت الخوف وانقطاع الكهرباء وصوت الرصاص.
- وأنا أدمنتك.
- أشفق عليك. إنك تدمن الأنثى الخطأ. ألا ترى؟
- ما الذي أراه؟
- كل هذا البؤس والشقاء الذي أنا فيه.
- أنا سأخلصك من كل شيء.
- هل تقصد أن تميت إحساسي بالأشياء؟
- كلا.
- إذن فماذا تقصد؟
- سأجعل حياتك أجمل.
سكتت. ثم سألته وشفتاها ترتجفان:
- وهؤلاء الصغار الذين يموتون؟ من يجعل حياتهم أجمل؟
- إنهم يموتون.
- وهل هذا قليل؟
تنفس بعمق:
- نجوى.. فكري جيدا في الأمر. سافري إلى لبنان وسألحق بك.

أي مصيبة نزلت بها هذا المساء؟ ما تقول لنفسها؟ بأي مبرر تقنع والدها بالحاجة للسفر؟ هبطت أنفاسها متعبة بعد طول تفكير، أغلقت هاتفها، عادت إلى خالد وغسان فوجدتهما قد أعدَّا

عشاءهما وتركا لها نصيبها. كان مشهدهما مؤثرا أعادها إلى نجوى قبل أن تعرف فراسا، أعاد إليها لُطفها الأمومي وابتساماتها الدافئة. أعاد إليها فراشات أحلامها بأن تراهما يوما رجلين يعتِلان همَّها وحاجاتها. جلست بينهما؛ لتشعر بأنها أختهما أيضا. سرقت لقمة من يد غسان. تفقدت آثار الضرب في وجه خالد. اقتطعت من قلبها ساعة سعادة وحياة وشاركتهما إياها. الحياة مع الصغار تذكرنا بأننا لا نزال صغارا، لكن منزوعو البراءة!

فندق خمس نجوم؟

وصل إلى لبنان صحبة أنور عند تمام الثانية ليلا. قصد الفندق الذي ينزل به كل سفر، وأشرع عينيه صوب صخرة الروشة التي تهجع وحولها تاريخها لا يهجع. إنه يتحدث إليها بالحياة وبالأمل، بعكس الأمكنة الكثيرة والمعالم التي زارها من قبل. هل لأنها ترتبط بنجوى؟ بقي إلى الفجر يجلس قبالة نافذته وينتظر الوقت الذي تكتسي فيه الصخرة بالنور. ما أجملها من لحظة! أوحت إليه بكثير من معاني التغيير والتواؤم. كيف لصخرة تبدو في الليل كقطعة من الصبر والتحمل والثبات أن تستحيل نهارا إلى لوحة فنية وطبيعة رقيقة؟ هل يدرك الصخر أن القوة لا تنافي الجمال بينما نتذبذب نحن بين إخفاقاتنا في إدراك كهذا؟

وما إن بدأت خيوط الشمس تلامس وجهه، حتى طرق خشوعَه صوتها يخبره بأنها وصلت.

تغلب عليها مرة أخرى. أقنعها بضرورة السفر ووعدها بألا يهرب من مواجهتها. أرسل إليها كل ما تحتاجه من حجز الطيران والفندق، ولم يتبق إلا أن يلتقيا. هو أحبها كما أحب أمه، وهي أحبه كما أحبت وطنها. هو يعرف ما في نفسها وهي تعرف ما في نفسه. لكنهما يفكران كالكبار ويلعبان كالصغار.

تدهشه كل مرة برفضها الاستسلام على الرغم من كل شيء. تعلمه كيف يؤجل ثأره إلى وقت لاحق ويعيش اللحظة كما يشاء. لقد احتالت على والدها وأخبرته أن بريق وظيفة ينتظرها في لبنان، وأفلتت من أسئلته الوطنية بسلام. زوَّدت خالدا بما يكفي من النصائح حتى تعود، واتفقت مع شمس على أن تستقبلها في المطار، ثم سافرت ولم تأبه بأحد... وحين وصلت، كانت صديقتها تنتظرها على أسئلة جمَّة، وازدادت أسئلتها وهي تراها في ثوبها الذي رأتها فيه قبل شهر، ولم يتغير فيها سوى ابتسامتها التي لم تجد لها تفسيرا.

سألتها شمس وهي تحمل عنها حقيبتها التي أوحت لها بأن عودتها لن تكون قبل ثلاثة أيام:

- أيتها المجنونة، ما الذي أعادك مرة أخرى؟

أجابت وهي مأخوذة بفرحة الوصول:

- لا أدري.. سأخبرك بكل شيء، لكنني الآن جائعة جدا.

فتَّشت في حقيبتها، ثم أكملت:

- لكن ابحثي لي عن هذا العنوان أولا.

وناولتها ورقة نقلت فيها رسالته. نظرت شمس إليها نظرة مرتابة، أتـمَّت وهي تتحقق من الورقة:

- فندق خمس نجوم؟ يا عيني. إنه يجعلك أكثر جنونا كل يوم.
استوقفت سيارة أجرة وحملت أقدارها إلى القرب منه، هو الذي ينام بعيدا حتى عن نفسه. علمت نجوى كيف تتوصل إلى وفاق مع هذا الرجل، وقررت أن تتابعه إلى أن يقتنع بلامبالاتها. لا يغلب الرجل مثل امرأة تتصرف كما يتصرف ولا تنكسر. إنها المرأة التي سيدرك في النهاية أنه لم يؤت قوة حبها.
في الطريق إلى الروشة، أخبرتها بكل ما حدث، كل ما لم تخبرها به. فاكتفت شمس بالإنصات إليها ورأت ألا تنبس بكلمة تفسد مزاجها قبل أن تلتقي به. إنها لا تأمن عليها منه.
قالت تغتال صمت الطريق:
- أنجزت ثلاثة فصول، بالمناسبة.
- والله؟ أنا سعيدة الآن.
بدا لها أن صديقتها ليست راضية عن سفرها لأجله، هو الذي أخلف موعده معها في المرة السابقة، وأنها تخشى تكرار مأساة تلك الليلة. لم تكن هي تخشى ساعتها إلا أن تضطر للذهاب إليه بثوبها الذي جاءت به. فكرت أن تقترح على صديقتها التسوق، إلا أن إفلاسها أعاد الفكرة إلى فمها. لقد جربت طويلا أن تذوب الأفكار اللاممكنة على لسانها قبل أن تقفز من بين شفتيها.
إفلاسها؟
لن تصدق شمس أن هذه التي تجلس بالقرب منها في سيارة واحدة، تفقدت قبل أن تخرج من بيتهم ملايينها المحرمة عليها وجاءت بحقيبة خاوية.
سألتها بعد أن أسهبت في سرد أحداث روايتها ووصف الشخصيات:
- تتوقّعين أن أحصل على مكانة ووظيفة بهذا الكتاب؟

أجابت بشيء من الأمل:

- أتمنى ذلك. ولكن لا تكتبي لهذا أبدا. الحياة تحاربنا كلما أردنا التصالح معها.

توقف السائق عند العنوان المنشود، فنظرت كل واحدة إلى الأخرى بذات السؤال الـمبهم... دفعت له شمس.

الأمهات لا يتعطَّرن

لبنان.. ولا أحد يطيق الحب في القرن الواحد والعشرين. لم ينم منذ يومين، وها هو ساهر يقضي الوقت عابثا مع أمل يخاطبه ويبوح له بأسراره.

يقول:

- هل تتمنى الآن أنك مثلي؟

يدا أمل المرتفعتان دائما تعطيانه منظر المستسلم، يخشع معه في لحظة صمت ثم يقص عليه أشواقه:

- أوه يا صديقي، إنني متعب جدا. سرقت الأيام مني أربعين عاما ولم تعطني أنثى صادقة. ما هو شعورك عندما تتذكر أنك بلا أم؟ هل تجد لذة للوجود وللحب ولسلطتك المزيفة على قبيلة من المجسمات الفارغة؟

يواصل أمل سكوته العميق، يواصل فراس شكواه:

- هل تتوقع أنها ستقبل أن تكون أمًّا لي وحدي؟ إنني الآن أعترف لك بأنها آخر أنثى في حياتي. سأنتهي إن لم ترض بأن تكون أما لي وحدي.

أمل صامت. هو يثرثر:

- ولك أن تفترض إلى الآن أننا متشابهين. كلانا سيِّدٌ يكذب على نفسه، أنت لك قبيلتك وأنا لي قصري، لكن الأمور قد تتغير، بل ممكن جدا أن تتغير. ثمة فرصة تنتظرني لأكون إنسانا، أما أنت فلا فرصة في انتظارك. إنني أحترم حزنك، إنني أحترمك جدا. لكنني لم أعد أحتمل هذا التشابه بيننا، يجب أن أصير إنسانا حقيقيا.

يتأمل فم أمل، يراه مفتوحا ومدهوشا، يواصل:

- هل تتوقع أنها ستكون أمًّا لي وحدي؟

وماذا عن نجوى؟ كان ينتظرها موعد مع دهشة صباحية صغيرة! أعادت قراءة رسالته بينما تنظر إلى الأغراض التي وجدتها، لعلها أخطأت الجناح. لكنها تأكدت من أنها في المكان الذي وصفه لها بالضبط، وعزز من ثقتها اعتناء الموظف بها وإحضاره الفطور بدون طلب. ضرب كتفيها صوت شمس من الغرفة المجاورة:

- واو. فستان لَيْلَكي!

فجمَّد أهدابها تماما. كانت هي تقلب صناديق المكياج وقناني العطور، وفمها يتَّسع عند كل دهشة. جاءت شمس تحمل الفستان وتجرب مقاسه عليها وتصيح في وجهها:

- افرحي. لم البؤس ولا شيء يستحقه؟

قالت خائفةً:

- اتركي كل شيء مكانه. من يكون حتى يسيِّرني على مزاجه؟

بحْلَقَتْ في وجهها، قالت:

- أنا دفعت كل شيء للتاكسي. هل معك ثمن ثوب؟

غطت وجهها بيديها:

- معي ثوب!

ستقابله كما أراد إذن. برائحتها الأصدق وثوبها الأروع من كل الاحتمالات. تعمَّد التضييق عليها؛ ليدفعها إلى المجيء في النهاية طبيعية وشهية. علم أن شراءه كل تلك الأشياء كان إسرافا. ولكنه تكلفها؛ لينظر ما تصنع. ليس جديدا عليه أن تتعطر له أنثى. فعلت هذا هند من قبل، فمات عطرها وبقي الحزن. هو يريد أمًّا، لا عشيقة. والأمهات لا يتعطَّرن. الأمهات يحملن طيبهن معهن، يدهشن في ثياب البيت القطنية. لا يحب أحدهم أمه لأنها جميلة بل لأن ابتسامتها صادقة.

أيّ روعة تعدل روعة الأنثى كما هي؟ إن الأنثى حين تتزين إنما تصبغ ملامحها بأخرى. تستبدل عطرها بعطر أخرى. ترتدي أخرى. ستقابله كما أراد وكما تريد. ما زال الإيقاع واحدا إلى الآن. لم تزل قوية ولم يزل قويا.

إنها تفضِّل ماء باردا وأنا أريد شايًا

وعصرا التقيا...

هاتفته عند الخامسة تخبره بأنها تنتظره. اعتذر عن تأخره وطلب منها أن تنتظره قليلا حتى يعاود الاتصال بها. رأت أن عليها أن تكون متَّزنة، وأن تقاومه إن فكر بممارسة حيلة معها. لكنه لم يفكر قطعا بأن يماطلها أكثر مما فعل. قصدت أحد مقاهي الفندق بعد أن تركت شمس نائمة في غرفتها، ولا أثقل

على صدرها من همِّ الكلمات الأولى التي يليق أن تقولها على مقربة منه. لم تتعب خيالها في التنبُّؤ بشكله ولبسه ورائحة عطره؛ حتى لا تفسد اللحظة. إنه يحب أن يكون أقل مما يتصوره الآخرون؛ لأنه لا يحب أن يكون ذلك الأعلى والأجمل والأفضل الذي يتمنونه. انتحت مكانا راق لها وأخذت توزع الدقائق بتصفح هاتفها في انتظاره. خجلت من النادل حين سألها عن طلبها فأخبرته أنها تنتظر أحدا. لعنت عجزها عن شراء قهوة!

بعد قرابة عشر دقائق، لمحت رجلا يمشي بوقار نحوها وعرفته. كانت تبتعد عن عقلها كلما اقترب منها، «هذا هو الذي ناولني الصندوق ذلك الصباح» حدثت نفسها، ثم تساءلت: «هل ينوي إغوائي بخادمه الأنيق هذا؟». وعندما ابتلعت غصَّة ارتباكها، كان هو يقف بإزائها ويطلبها الإذن بالجلوس. تفحصت ملامح وجهه المألوفة لديها وهي عاجزة تماما أن تستوعب أن يكون هو الخادم والسيِّد والتاجر. الخادم الذي سلمها بكلة الشعر، والسيد الذي ترك لها اللوحة في المطعم، والتاجر الذي اشترى سريرها. جالت بعينيها حول المكان بينما ينتظر إذنها. وضعت هاتفها على الطاولة. خشيت أن ترتكب حماقة سؤاله عن نفسه، واحتارت بين الإذن له والرفض. سيرضى بأي تصرُّف حتما ويجلس. ولكنه سيبني علاقتهما بعدها على ظنها به. وبعد أن انهارت قواها التفكيرية قالت بمواربة:

- أوشكت أن أقوم.

ابتسم بشفقة. قال:

- إذن لا تزالين جالسة.

أشارت إليه بالجلوس:

- تأخرتَ عليَّ.

وجَّه الكرسي نحو اليسار، حيث المدخل يخبئ احتمال رجل آخر. نظر إلى وجهها المحتقن بالحيرة. هزَّ رأسه يعتذر عن كل شيء. لم يكن يطمع في شعورها بروحه كما كان يقرأ في قصص العشق العربية، ولم يكن يخشى أن ترفض وجوده، إذْ كان وقتها رجلا غريبا، كل ما توقعه أن يجد أنثى تريد الجميع ولا تريد فراسا.

قال وهو يتوسَّد بذقنه راحة يده:

- ما تحبين أن نشرب؟

أجابت، وهي لا تزال غير مقتنعة أنه هو:

- أنا أفضِّل الماء البارد في مثل هذا الوقت.

أشار إلى النادل:

- إنها تفضِّل ماء باردا وأنا أريد شايًا.

التفت إليها بابتسامة:

- قليل السّكر من فضلك.

- هل تسكن بالجوار؟

- بالطبع، يفصل بيننا طابق واحد.

عرفت من اللغة التي يجيب بها أنه هو، فراس أبو القاسم الذي لن يكون بوجه واحد أبدا. اطمأنت إلى أنها لم تسئ إليه - في بالها- وتقبَّل هو كل إساءاتها كأنما أعدَّ لها صبرا خاصا.

سألها يستعيد طلاقة لسانها وقوته:

- كيف تسير أمور الرواية؟.

- أوه، نسيت أمرها بالكلِّية.

- بهذه السرعة؟

- هكذا فعلت مع كل رواية كتبتها. أنا لا أصلح للروايات.

- كلنا لا نصلح.
أرادت الدخول إلى عالمه بالطريقة التي دخل بها إلى عالمها، فسألته:
- ما تقرأ حاليا؟
- لا شيء.
شرع في الدوران بملعقته في الفنجان وهو يقول:
- لا أقرأ الأدب، بالمناسبة. أذكر أنني قررت مرة أن أبدأ بقراءة (رباعية الإسكندرية) ولكنني وجدتها مملة.
- الذي يراك يظنك كاتبا.
ابتسم ابتسامة واسعة بعثت في قلبها بعض الراحة. علَّقَ:
- الذي يرى الكتَّاب أنفسهم لا يظنهم كتَّابًا.
ابتسمت ابتسامة واسعة، تلذذ هو بهذه الضحكة الخجلى التي تترنح في فمها، قال:
- سأخبرك قبل أن أنسى برأيي في كتاباتك. إنها سيئة.
- يا ساتر.. ظننتك الوحيد الذي اقتنع بي.
- هناك الآلاف اقتنعوا بك.
- ولماذا هي سيئة؟
- لأنك جميلة!
- هل أحتاج إلى وقت للتفكير؟
- لك كل الوقت. لكنني واضح معك هذه المرة.
ابتسمَ، ثم أكمل:
- لغتك معقدة وغير موجهة. ولكن يجب عليك أن تتأكدي من أنني لست ذلك الناقد الذي يُعتد بكلامه.
- أكره النقَّاد.
- الجمال يكره النقد ويخافه.

- لماذا تصر على أنني جميلة؟
- دعيني أفكر.. مممممم.. لأن كتاباتك سيئة ربما؟
ضحكا معا بلا حرج، قالت:
- قلت لك من البداية إنك قارئ لا أتمنى مثله. أعترف بأن أسلوبي في الكتابة معقد ولكن هذا لا يعني أن كتاباتي سيئة. ولو أردتَ الصراحة، أنت تقول الحقيقة.. أوه.. يعني.. لقد أجبت على كل أسئلتي. كنت أتساءل عن السبب الذي يجعلني أمزق كل رواياتي وقصائدي التي أكتبها، لكنني الآن عرفته.

عندما انتهت من كلامها شعرت بالخجل، كان هو يغوص في عينيها، كان أشبه بالنائم، همَّت بأن تنبهه، لكنها خافت، فالتزمت الصمت لوهلة وكل الأفكار السيئة تحطُّ في بالها، من هذا الذي يشاركها طاولة واحدة؟ كان هذا هو السؤال الذي أخافها حقا.

انتَبَهَ من سهومه قائلا:
- هل اسمك الحقيقي نجوى؟
- لا يوجد اسم حقيقي، هناك فقط اسم ينادينا به أكثر الناس. بم تحب أن تناديني؟
- نجوى.

سألها إذا ما كانت متفرغة للعشاء معه فأجابت بالموافقة. اصطحبها إلى مطعم يبعد عن الفندق بحوالي ربع ساعة. شيء ما يشبه المطر خامرها وهو يمسك بيدها برقَّة ويملأ عالمها. ما زال العطر عينُه يوشوش ذاكرتها ويدسُّ في شعرها أكثر من بكلة زرقاء وأكثر من صباح.

هروبا من العيون العربية

في المطعم...

كان مأخوذا بسحرها، وذكاء تصرفاتها، وصوتها أيضا. كيف تركت إرادته وراءها وجاءت في ثوب إرادتها كما شاءت؟ بل كيف شاءت أن تضاهي بحضورها حضور ماله وكلماته وكبريائه، ثم تنال إعجابه بعد كل هذا؟ لا يعقل أن تكون هي التي طاوعته في كل مرة، ثم لـمَّا تجلَّى لها، صاحت في وجه اعتداده بنفسه: «انظر إلى الجبل!»، لا يعقل أن يكون هو الذي طوَّعها في كل مرة، ثم استعصت عليه بقوة صوتها وكبريائها حين ظن أنها انهزمت أخيرا.

تسلسل الأحداث منذ قرر أن يدخل عالمها يوحي له بأنها ستأتي في الثوب الذي اختاره هو، في عطره، في زوج الحذاء الذي رأى أن علوَّ كعبه عن الأرض يليق بها، في أقنعة الـمكياج وتفاصيله الكثيرة الأخرى. ما كان يظنّ أن يجدها في ثوبها الذي سافرت به كأنها ستقابل إحدى صديقاتها. لقد سخرت منه، من حيث أرادت أن تملي عليه إغواء طبيعتها وحضورها المكتنز بحلاوة الرائحة. كل شيء كان يلفته إلى أنها ليست الأنثى التي تربط ثراءها بالمال أو جمالها برجلها. لقد كانت الأنثى التي لا ترى إلا نفسها في مرايا الجميع ومع هذا تبدو جميلة كل الوقت. متَّقِدةً كانت ولذيذة وهي تجلس قبالته على طاولة واحدة. بيد أنها كانت تحتاج إلى ضعف عمرها على الأقل؛ لتفسر سبب وجوده معها.

ما كانت تتوقع أن يكون هذا المهشَّم الذي يقابلها يعيش بلا زوجة، وأنه مفلس حتى القاع من الحب ومن الأهل ومن

الوطن. الناس من حولهما كانوا مغمورين بملذَّاتهم، يضعون اللقمات في أفواه بعضهم، يقبِّلون بعضهم، يضحكون حتى الحزن.

قالت له في لحظة سكون:

- هل تعلم؟ الأكل في هذه المطاعم لا يعدو كونه مطلبا للرفاهية وليس وسيلة لدفع الجوع.

علمت أنها تخالف قواعد اللقاءات الأولى، وتبدو متخلِّفة في عرف الذين يرتادون المطاعم المكلِّفة. ولكنها لم تأبه. كل ما كان يهمها ألا تدع فرصة صمت واحدة.

أكمل عنها:

- أو هروبا من العيون العربية في الخارج.

قرَّب منها صحنا وهو يواصل بسخرية:

- صحيح أن الأغلبية داخل المطعم من العرب، إلا أنهم عرب مهجَّنون، مُحْدثو نعمة، لم يأتوا ليشبعوا، بل ليحبُّوا.

- ونحن؟

تقبَّل غلاظة سؤالها بابتسامة:

- أما أنا فلا أثق في المطاعم الرخيصة التي تغلق كل شهر على حالة تسمُّم. ماذا عنكِ؟

- أنا؟

ضحكت، ثم قالت:

- لأكتب عنها، لا أكثر.

- لا أدري ما السبب الذي يجعلكم تبذِّرون جُلَّ حياتكم في العيش المشروط، تدخلون المطاعم وتزورون المدن الجميلة لتكتبوا عنها، متى تدخلين مطعما لسبب واحد؟

- فعلتها مرة فخرجت وحدي. العيش المشروط يضعنا في أمان من عبثية العيش.
- خذي هذه اللقمة المشروطة إذن.

وسَّعت شفتيها بربع ابتسامة. بعثرت ملامح وجهها في صورة تنقل شعورها بالإحراج والخوف. فتحت فمها وهي مغمضة عينيها، لم ترد أن تشاهد وجهه الغائر في لذة انتصاره..

- شكرا. ولكن ما هو الشرط؟
- أن تأخذي هذه اللقمة اللا مشروطة.

سيَّان هما. أراد فقط أن يعلمها درسا في طريقة العيش مع أنها تفوقه خبرة بالجوع والعطش والجدب. العيش هو العيش، سواء كان مشروطا أو عبثيًّا. في النهاية هو الذي يلجئنا إلى إحدى الطريقتين. طريقة عيش أحدنا ما هي إلا خلاصة عجزه عن غيرها، ما هي إلا طاقاته المحدودة، رغائبه، طموحاته. لا أحد يعيش كما يريد في الحقيقة. مع أن هناك الكثيرين يستطيعون أن يفسروا عيشهم كما يريدون. فرق بين أن نختار وأن نفسر. إننا في الأولى أقوياء وأحرار بينما في الثانية لسنا أكثر من أدباء.

تزعم هي أنها الأقوى؛ لأنها اختارت أن تجوع، ويزعم أبوها أنه الأقوى؛ لأنه اختار ألا يهاجر، ويزعم شوبق أنه الأقوى؛ لأنه اختار أن يجرم، ويزعم هو أنه الأقوى؛ لأنه اختار أن يكون ثريا. ولكن واحدا منهم لم يجتهد في الوصول إلى ما هو عليه. فقط وجدوا أنهم في ضوضاء حياة تفرض عليهم القرار والآخر، فتعوَّدوا أن يكونوا مفسِّرين بارعين.

كل الناس أدباء إذن. نعم، كلهم كذلك. وإنما طائفة محدودة منهم هي التي تكتب، وطائفة هي التي تزوِّر، وطائفة هي التي

تنتقد، وطائفة هي التي تقرأ. وهم في كل أحوالهم يحاولون الهروب من عجزهم عن فعل شيء، ويطمعون في التغلب على النهاية.

تنام شمس؛ لأنها معجبة بفراس، ولأنها لا تريد أن تسرقه من صديقتها. شمس ترى أنها الأنسب له والأجرأ على حبه، والوحيدة التي جربت ما فيه كفاية ليمكِّنها من الإطاحة به. تنام؛ لينام معها شبَقُها وتهوُّرها، لتنام غيرتها وحاجتها لرجل، لينام حرمانها، لينام انتظارها. شمس مضطرة للنوم؛ لأنها تريد لوفائها وحده أن يستيقظ. فنحن بينما ننام نأذن لكل طاقاتنا الأخلاقية والطبيعية والسليمة بالتحرُّك. ونجمِّد كل انخداعنا وغبائنا وبلاهتنا. إن أصدق ضعف يمكن أن يشعر به الإنسان هو النوم. وهو أفصح اللغات التي تحدث بها الإنسان، وأقوى انتصاراته على القوانين والمثل، وأجدر الوسائل بأن تبقيه في أمان من مخالب اليقظة وأنيابها.

أما نجوى فترى أنها معه ستستطيع الفكاك من الأغلال التي قد تلْتفُّ حولها وتبقيها عاجزة، ترى أنها ستكتب ما دام يقرأ لها وستنفجر وتطير وهي تتحدَّاه وتعيش معه بغير ما يعيش به.

أما هو فرأى أن لقمته تثير أنوثتها وتغريها بالاستسلام لسُلْطة حضوره، أراد أن يثبت لها أنه ينتقل من رأسها إلى فمها.

ما أكذبنا على أنفسنا حين نحاول أن نفهم الآخرين بطريقتهم في فهم أنفسهم. أليسوا بحاجة إلى من يفهمهم بطريقته في فهم نفسه؟! لن يكلفنا الحكم على أحدهم أكثر من النطق به، بينما سنتكلف عناء الماضي والحاضر والمستقبل؛ لندَّعي أننا توصَّلنا إلى الحكم الذي يعتقده هو.

أبدى لها قواه، فحكمت عليه بالضعف؛ لأن شيئا مما أبداه لم يكن يساوي بالعدل شيئا مما قاله وضحك عليه وسكت عاجزا عن إدراكه. هذا هو الحب في الحقيقة: الوقوف في الجهة المضادَّة للطرف الآخر وتعريته من أوهامه، لا الالتصاق به ومشاركته اضطراباته. ولئن انتهى حبٌّ في النهاية فالسبب هو أن أحد الطرفين لم يطق أن يعيش ذاته مرتين، لم يطق أن يكون ضعيفا أكثر مما هو ولا قويا أكثر مما ينبغي. يفهمنا الآخرون خطأ حينما يتَّهموننا بالحاجة إلى نفاقهم. إننا في الحقيقة لن نحبهم بقدر ما سنحب من خالفونا واعتركوا معنا.

الحب هو أن تعيش في غيرك أحسن مما تعيشه في نفسك. وما سوى ذلك ضرب من الانخداع بالذات يفسد بعد حين. وفي هذا الحب لا كلمات مكررة، لا مشاهد سينمائية، لا تزييف، لا كذب، لا رياء، لا برود، لا شيء سوى المدِّ الذي يبلغ قمَّة الحصول، أو الجزر الذي ينحسر عن قاع الخذلان. وبينهما نجد الفرصة لنكتشف كم غيَّر الآخرون فينا وكم غيرنا فيهم.

وجه شمس

تلحُّ عليه فاطمة كثيرا منذ دخول ذي الحجة وترجوه أن يحضر العيد معهم. لولا فاطمة لانمحت مزهرة من وجهاته منذ زمن. إنها تعيده إليها كلما شعرت أنه بدأ ينسحب منها، وتأتيه باسم الواجب في كل محاولة. إنه العيد. ألا يكفي غيابه عن العيد السابق؟

خرج من غرفته بقصد شرب الشاي ريثما يعدُّ أنور كل شيء للعودة إلى الدمام. ولكنها قصدت أن تراه حين لم يكن بوسعها أن تشرب قهوة. أو ربما أحرق الفضول قلب شمس فأغرتها بالخروج لعلها تراه. أظهر فرحا برؤيتهما وأظهرت الفخر به. وأظهرت شمس غرقها فيه. بادرهما:

- من حسنات هذا الفندق أن الإضاءة فيه كئيبة. الأمر الذي يخرج أحدهم ليرى هذا الجمال.

رحبت به:

- مرحبا. ومن الحسنات أنك هنا.

استأذن بالجلوس. توجَّه إلى شمس:

- أديبة أخرى؟ لماذا لم تحضر معك المرة السابقة؟

ابتسمت ابتسامة برتقالية:

- ألا تخشى أن تجد نفسك بين أديبتين؟

ضحك مجاملا، سألها:

- ماء باردا؟

- أكيد.

عاد إلى النادل:

- ماء بارد، وفنجانا قهوة عربية.

نظر إلى شمس:

- عزمت عليك بطريقة الأدباء.

التفت إليها:

- أم أنني أخطأت الطريقة؟

ضحكت شمس بفتنة مفتعلة:

- الأدباء لا يعزمون على أحد، إنهم مفلسون دائما**!**

- إذن أنتِ هي الأديبة الأخرى.

تجمِّعت الغصص في حلق نجوى وهي تلاحظه يلاطف صديقتها بطريقة تثير الغيرة. ليست هي التي تغار، فهي التي تقول: *«اعبرني مع امرأة أخرى. فأنا بذلك أتيقن أنك تتعذب»*. وإنما تنزعج من وجوده بينهما، هي التي حاولت كثيرا ألا يلتقيا. علقت:

- وإن فعلوا فإنهم لا يقدمون قهوة عربية. يكفي أنهم يتجرَّعون مرارتها وهم يكتبون.

قال ساخرًا: عموما ليس كل الأدباء عربا. ثم إن القهوة العربية من أكبر إنجازاتنا. إنها مجال يضعنا وجها لوجه مع قهوات الشعوب الأخرى وإنجازاتهم.

أكملت له شمس سخريته:

- كما تلذعنا قبل قهوات الشعوب الأخرى.

فسألته نجوى بضجر:

- متى ستسافر؟

وأرادت بسؤالها أن تخرج عينيه من وجه شمس.

- كنت أنتظر السائق. أتمنى أن تستكملي مدة الإقامة التي افترضتها لك.

شعرت بالإحراج:

- أتمنى أن تنتهي غدا. عليَّ أن أعود في أقرب وقت.

- شهر إضافي، أليس أقرب وقت؟

- هذا محال، ثم إن شمس تريد العودة إلى بيتها.

خطيئة انتظار أنثى

وصل إلى بيته قبل شروق الشمس. كلَّف أنور بالقيام بكل شيء. أمر بتجهيز فطوره وجلْبِهِ إلى الغرفة الخارجية، هناك حيث فراشها هو الوطن، وهو الوجه الذي لم يره في كل لبنان. انبعثت رائحتها ساعة استلقى عليه، فهوى نائما على غير عادته، وعاد طباخه بالفطور مندهشا...

شُغل عنها بأعماله ولم يجد وقتا للحديث معها. حاول أن يلهي شوقه إليها بالجامعة والمشروعات وتشذيب الأشجار في حديقة بيته... ولكنه لما دخل مكتبه عند العاشرة صباحا من هذا اليوم، وكان يتلهَّف للعثور على مكالماتها الفائتة ورسائلها... لم تكن ثمة نجوى في انتظاره.

صاح بأعلى صوته وهو يعيث في مكتبه، ويبعثر كل أشيائه «كيف تفكر هذه الصبية؟»، «هل تظنني ندًّا لأحلامها؟». أسرع أنور إلى غرفته يسأله عن سبب ارتفاع صوته، فالتفت إليه بوجه شيطاني وهو يطرده «لم يخلقك الله لتسأل عن صوتي يا غبي!»، ويواصل العبث بوقاره. آذاه عدم سؤالها عنه، خرج ويداه تنزفان بشدة من أثر الزجاج المتكسر فيهما، وقلبه يرتجف «خائنة أخرى يا الله؟ ألا تخلق إلا الخائنين؟»، بادر إليه أنور وعيناه تذرفان خشية عليه، وأوقف النزيف بلفافة اجتلبها من صندوق الإسعافات، ثم قرب إليه ماء باردا وابتعد عنه.

وعلى فراشها، حيث هي في أصدق الحضور وأصدق الغياب. هدأ قليلا ثم ابتلع قرصا منوِّما واستلقى وهو يفكر «هل أستبعد أن يكون أصابها مكروه؟». حقا، ما طوق النجاة الذي يبعدها عن الموت المتوفر في بلدها بكل الأساليب؟ من يضمن

له أن تكون هي هناك في أصل الجحيم بحاجة إلى رصيد لمهاتفته؟

احتاج إلى قيلولة صغيرة، ثم استيقظ وهو يطمع أن يجد لها رسالة واحدة تطمئنه، عاد إلى مكتبه ينشد هاتفه، ولكنه تذكر في الطريق أنه كسره، فأدخل يده في جيبه وتناول هاتفا آخر... نادى أحدهم وطلب منه تهيئة المسبح قبل العصر ثم واصل المشي بينما تتسابق الرنات إلى حيث هي. ولكن لا يأتي صوتها متوجِّعا أو ناعسا أو مستعدًّا للمجاكرة كما كان. أعاده إلى جيبه، عندما تخذله أنثاه لا ينصره مثل جيبه!.

أيعقل أن تكون لم تعجب به بعد كل تلك الدهشة؟ لم لا يحظى الرجال الحقيقيون دائما بحب صادق؟ قفز من كل تساؤلاته إلى أعمق نقطة في مسبحه، يفعل هذا حينما لا يكون التفكير بشأنها سوى إحراق للأعصاب، ندم قليلا على سفره للقائها، عندما تذكر أنه هاتفها ذات ليلة من هذا المسبح ولم يكن يشتهي إلا صوتها، وهو الآن يشتهي المزيد منها، يريد أن يرتوي ولكن بفم مطبق. أبطأ في التفكير وهو يلامس قاع المسبح، القاع الذي ليس بعده إلا التراب، ثم عرج إلى الأعلى برئتين فارغتين من الحياة، خرج مفزوعا يلهث وراء ذرة أوكسجين تعيد الهواء إلى صدره، زرقة الماء من أسفل تغريه وتتحداه، استأنس رحم الماء لعل صوتها يولد في لحظة اشتهاء ويكون هو الهواء الذي يعيد إلى صدره انتفاخه وقوته...

تشرب هي قهوة ضجرها في شرفتها العالية، وتتساءل كيف كانت اللاذقية قبل خمس سنوات؟ كيف كانت الحياة فيها تنمو كياسمينة وكيف كانت الأصوات تطير كالفراش؟ ما أصابها؟ من أضعف بحرها وجبالها؟ من أشعل الخوف في أزقَّتها وأنبت

اليتم في منازلها؟ تتذكر المشاوير الجميلة إلى دمشق، والخبز الساخن فجرا، والتوت الشامي الذي لم يوجد ألذ منه. إنها للحظة بطيئة ومؤلمة! تلك التي تدرك فيها أن وطنك الذي سألت عنه السماء والأرض وسألت عنه الوجوه والملامح والعشب والأغاني والحكايات، أنه لا يحتفظ لك بأية إجابة، ولا يتفرَّغ للإنصات إليك ومشاركتك فنجان حاجة. تنزل ببرود، يتدلى فنجانها الصغير معلقا في إصبعها، وهي تفكر في جوع الليلة، ولا شيء في البيت سوى أدوات قديمة كانت رتبتها عند الباب للبيع.. تخرج من المطبخ، تملي على قدميها الضائعتين الطريق إلى مكتب حسان، تفتح الباب بخشوع كأنما تدخل مسجدا. يا حسّان، ليتك تعلم!.

تلامس بيديها وخدّيها كل أشيائه، تبكي وتلامس كل أشيائه، الأوراق الضخمة والواسعة كوجهه، أقلام الرصاص التي رسم بها أحلام الجميع، أدواته الهندسية التي لم تكن دقيقة ما فيه الكفاية لخداع الموت، صور الشخصيات التي أحبها: (عبد الرحمن الكواكبي)، (علي الطنطاوي)، (أحمد ياسين)، وصور أصدقائه وأشخاص لم تعرفهم، كان يرسمهم بغموض.. سحبت كرسيه الذي لم يزل بعيدا عن المكتب كما تركه آخر مرة. ودفنت وجهها في صورته، لم يضعفها فراق مثلما أضعفها فراق حسان الذي كان كل أسرتها، فحين لم يكن الجميع فارغين للتفكير بشأن دراستها في الجامعة، حارب إهمالهم وسجلها على نفقته، وحين لم يترددوا في قبول خاطب لم ترد الزواج منه، دافع عن قلبها بأعلى صوته ورفض أن تُزوَّج رجلا لا تحبه، لقد كان سبب سعادتها، ولأنها في بلد قد يحيل أسباب السعادة إلى أسباب شقاء، فهو سبب شقائها أيضا، فلولا حبه الشديد وخوفه

عليها لكانت الآن ثكلى أو أرملة في رأسها الكثير من الألم الذي يشغلها عن الأحلام الزائدة.

غربت الشمس وما زال يطفو وينغمر ويحصي أنفاسه. يتوسل إليه أنور بالاكتفاء من الماء قبل أن يمرض، ولكنه يصر على المكوث إلى حين، ويأمره بالابتعاد عنه.

ينادي عليه بعد قليل: «اجلب لي أمل ثم انصرف».

مشهد رهيب! أن يتغير الماء من الزُّرقة إلى السواد وأنت في وسطه، وأن تعود الشمس محمرَّة وأنت لا تزال ترتكب خطيئة انتظار أنثى نسيتك تماما كما تنسى بطلا من أبطال روايتها.

سأل أمل:

- إنني طماع، ألست كذلك؟

ومشكلة أمل أن كل الأسئلة تدهشه، وكل الكلمات مهما كانت حزينة لا تحرك يديه.

صاح عليه:

- هيا أجبني.

لكنه لا يحرك ساكنا.

- إنها الأنثى الأخيرة يا أيها الأخرس، فلتقل شيئا.

يبقي يديه مرفوعتين.

- فلتسكت إلى الأبد.

مزَّقه إلى قطع ورماها في الماء وهو يبكي من الحسرة. لعل مرآة الماء كانت تعكس تجاعيد وجهه وشيخوخة أحلامه، أو لعل صمت أمل ذكره بصمته، فهما متشابهان، وإن يكن مزق أملا فهو في الحقيقة كان يمزق فراسا القديم، ذلك الصامت الجامد المفلس.

وبعد العِشاء، كان يرتفع إلى سطح الماء باحثا عن حياة بعد أن بالغ في خنق أنفاسه، فالتقى فمه بوجه أنور الواقف على حافة المسبح، فأفرغ ما في داخله من ماء على ملابسه ثم سأله: «ما تريد؟»، قال بصوت يبكي: «أصلحت لك الهاتف»، ووضعه قريبا منه ثم عاد إلى غرفته. رجع إلى نفسه وأدرك إلى أي حد لم يعد يتحكم بتصرفاته وأقواله، أغمض عينيه عن كل هذا وغمر ضميره في الماء، كم تموت الضمائر في انتظار حبّ لا يأتي!...

قاطعها غسان يشكو ألـما في بطنه، فأعادت الصورة إلى مكانها من ذاكرة الحائط، ثم أمسكت بشعره تلصق وجهه في وجهها، وتسأله أن يكون كحسان الذي كان يذهب إلى المدرسة على الجوع؛ ليشتري لها لعبة، وهي تؤمن أن الجياع لا يتمنون أن يكونوا كأحد، فبعض الجوع يستأصل حتى القدرة على التمني، يا لهما من جبينين جميلين تجمع بينهما ذات الحاجة إلى عشاء، جربت أن تبكي على كتفه، ولكنها شعرت أنه ما زال رطبا وضعيفا كجناحي فراشة، فدعته إلى لعبة رأت أنها ستسكت آلام بطنه وتركت وجهها في الغرفة موجَّهًا إلى السماء، وفجأة أطلّ خالد بوجهه البطولي وهو يفسح الطريق لصاحب بقالة في الحارة الـمجاورة... دخلت وغسان إلى غرفتها وهي تعجب من جرأته على التصرف بغير إذنها، تساءلت عن الشيء الذي فكر ببيعه، أرسلت غسان في طلبه ولكنه لم يعد به.

خرج خالد بعد العصر دون أن يعلم أحد، ولم يعد إلا عند العاشرة باحتمال عشاء، لقد كبر بسرعة وتعلم كيف يسكت كل شيء لأجل وطنه. وحين لم تنجح كل نداءاتها عليه وهي تراه

يجرجر الثلاجة إلى الخارج، غطَّت رأسها وخرجت إليه، ثم اجترَّته من قميصه:

- ما تفعل؟ خالد.

أفلت من قبضتها ولم ينْبِس بكلمة، ثم لما كان عند الباب قال لهما بهدوء:

- أنا المسؤول عنكما من الآن.

وبعد ساعة، طرق الباب محمَّلا بعشاء أسبوع، ألقاه في المطبخ، وناولها ما تبقى من ثمن الثلاجة:

- لا تغضبي. لن يطعمنا أحد. الكل هنا جياع.

- ولكنها الثلاجة يا أخي.

- لم تكن أكثر من عبء علينا.

سكت للحظة، ثم قال بلا تردد:

- انتقصت من ثمن الثلاجة ثمن عشاء لأشرف، فهو من ساعدني طول هذا المشوار.

إلى غابة شوكولا

خرج من الماء، كان لابد أن يخرج، لكنه خرج متأخرا بعد سبع ساعات من الغوص والطفو في انتظارها. وبينما هو مستلق على العشب يكنس نجوم السماء ويلتحف بالظلام وصوت صراصير الليل، باغتته باتصالها المتأخر جدا:

- أهلا فراس.

- نجوى.

- نعم.
- إنني أكرهك!
حاولت أن تظهر له أنها لم تتأثر:
- هل بسبب غيابي؟
- أكرهك!
- فراس، دعني أوضح لك الأمور...
- أكرهك!
تنهَّدت:
- انقطعت الكهرباء، ولم يكن في جوالي رصيد، انتظرت اتصالك ولكنك لم تتصل.
- هل أنا سخيف؟
- لا.
- فلا تعبثي بي يا صغيرتي.
- إنني أخبرك بالواقع الذي هو في الأصل عابث.
بقيا صامتين، حتى التقطت نجوى نفسا:
- أتدري؟ اليوم هو الأربعاء.
- وما الجديد؟
- ألم أخبرك؟ إنه عيد المجانين! أنا مجنونة... ولكن لا تستغل جنوني بالمناسبة.
- لا أعلم حد هذا الجنون أو كيفيته. ولكن كل أربعاء وأنت بجنون.
- «وِسْع الغابات. اللي حدودا حدود اللفتات». (من أغنية لفيروز).
- يغريني بمشاركتك حقا. هل نلتقي؟
- هذا جنون يفوق طاقة جنوني. أنت مبتدئ كارثيٌّ.

- سأحملك إلى غابة شوكولا.

- لا تلامس نقاط ضعفي. لا أستطيع.

- لم أفعل. أنا أشتهيك قوية كما أنت.

- بل فعلت. أنت لا تعلم ما يمكن أن تحدثه فيَّ كلمة شوكولا.

- سأرى قريبا ما تحدثه فيك شجرتها. نامي جيّدا، صغيرتي.

نقَّبت عن كذبة سريعة تتهرب بها من جنونه الذي سيجرِّدها من عذر عند والدها. نادته كأنما يئست من أنه ما زال يرجو موافقتها، فكان كما يكون دائما رجل اليأس الذي يبيع الأمل ويشتريه. هذا الرجل يعرف كيف يكون مسكينا ومخدوعا، ويحيل الآخرين إلى قساة عندما يريد، حاولت الاتصال إلا أن هاتفها كان فارغا من رصيد، قضمت أظافرها وهي تلعن اللحظة التي قررت فيها الاتصال به. لا تدري. لمَ يكلفها فوق استطاعتها إذا اتصلت به أولا؟ لم يضيِّق عليها وكأنه يسألها «لم اتصلت أنتِ؟»...

قعدت على الأرض واهنة من طول الوقوف في الحوش خوفا على غسان الذي أرسلته في شراء كرت إعادة شحن، قعدت وهي تخشى أن يعلم خالد بما تفعله في المصروف، وما فعلته في غسان. لقد أضحت تخافه، ترتبك في إخباره بما تبقى من ثمن الثلاجة، تختلس، بعد أن ينام، فنجان قهوتها التي لا ترضى أن تشربها في حضوره، فهذا يشعره بحرمانه وتضحيته، يشعره أنه ولد بوطنيته كما ولد بأقداره ودينه وبؤسه ونعيمه. أليس الوطن قدرا؟ أليس يمكن أن يكون نعمة أو بؤسا؟ أليس يمكن أن نحمد الله عليه أو نتضرع إليه أن يخلصنا منه؟ قعدت وهي كظيمة ترفع حاجبيها وتنزلهما، وتلوم نفسها وتلوم

فراسا وتلوم كبرياءها التي أرهقتها من أمرها كل العسر. إن في غرفتها، في مكان ما، شيك كفيل بأن يطعمها من جوع ويؤمنها من خوف؟ أليس كفيلا بأن يشتري لها وطنا، فراشا، أحلاما، حياة مختلفة؟ بلى، ولكنها لا تريد، إنها كما قالت لفراس أدمنت حياة الخوف، فهي تخشى المال خشيتها الفقر، ثم إن هذا المال الباهض لم يكن إلا ثمنا لفراشها، وهذا يعذبها.

دخل غسان، وهي تنظف اللوحة التي لا تمتُّ بذكرى حسنة لها، وضع الكرْت بصمت كما طلبت منه وغادر، ما تفعل بلوحة وجدت أنها تقابلها ذات ليلة في مطعم بلا رجل؟ إنها كالنبتة التي لا فائدة منها، ككأس الماء البارد فوق الدرجة الصحية، كأي شيء فائض عن الحاجة يشغل مكانا كبيرا من عالمنا، لم تعلم بعد أنها كلفته ثلاثة أيام على فراش جين، هو الذي علقها على حائط حبها وعاد يخطط لشراء فراشها. أرسلت له نصًّا ملأته باعتذار أبيض، ثم انكفأت لتنام بعد يوم ونصف من السهر...

إلى بقالة أشرف

هاتفها صباحا وأعلمها بتفاصيل كل شيء، للمرة الأولى يتفاوض معها حول رغبة، يضع يديه على قلبها، ويستشعر خوفها، يتفق معها في النهاية على المكان الذي خطط للقائها فيه وقدَّم له بكل تعقيد وترتيب، أهمل رسالتها بمراوغة مدروسة، وراح يدعوها إلى زيارته في بيته.

قالت باندهاش أضحكه:

- بيتك؟

- نعم يا نجوى.

لم تعلم بعد أنه ليس متزوجا، وإلا كانت أعدت نفسها لتكون هي صاحبة البيت، لم يخبرها إلا عن القليل من حياته؛ لأنها لم تسأله؛ لأنه لم يترك لها فرصة لوضع علامة استفهام واحدة تلزمه الصمت.

جالت بعينيها الحائرتين والمشتاقتين والعذبتين، تبحثان عن شيء يُباع، عادت عيناها حسيرتين من أثر الخواء، لم يكن من الأمر في عينيها شيء ولا في يديها، لقد كان تحت فراشها الذي تنام عليه، لقد كانت الحياة مكفَّنة بالكبرياء والكرامة والغباء أيضا. بعد أن يئست تماما من العثور على شيء تبيعه، أَوَت إلى حكمة شمس وتجربتها:

- أنا منهارة يا شمس.

ردت بثقة ككل مرة:

- لم تنهاري بعد.

لاحظت أنها أيقظتها من نومها، قالت بخجل:

- آسفة، شمس. ولكني بحاجة إليك.

- لكِ عيوني، لكن لا تقلقيني أكثر، تكلمي..

- سأسافر إلى السعودية!

انسحبت من غطائها الثقيل، قاطعتها:

- قد لا أكذب إن قلت لك إنني لم أسمع.

قالت بفتور:

- رصيدي سينتهي، سأتصل بك عبر Skype.

- سأسافر إلى السعودية. هاتفني قبل نصف ساعة يدعوني لزيارته في بيته، أنا لم يعد في يدي اعتذار يا شمس، لـمَ كل الأحلام صعبة؟

أكلت الغيرة ثقة شمس، فقالت تثبطها:

- يدعوك أم يأمرك؟ ثم إنك لست قادرة على تلبية دعوته في هذه الظروف.

- شمس، شمس.. لا يجب أن تفوتني هذه الزيارة، ولقد كان بإمكاني أن أرفض دعوته، ولكني...

- هل جهازك المحمول يفي بالغرض؟

- أبيعه؟

- لم تعد المجلة التي نكتب فيها تنشر خواطرنا، يبدو لي أنهم أحبوا المقالات السياسية اللاذعة مؤخرا.

ضحكت بمواساة:

- ثم إنك لن تحتاجي سماع صوتي وأنت في منزله، هناك على الأقل شبكة مكتملة الأبراج، وبلا كلمة مرور!

شعرت بسخريتها، لم تدرك أنها مخطئة إلا وهي تسمعها توارب في وصفها بالإمَّعة، قالت تنهي المكالمة: ربما أعود. إن فقدت صوتي فأنا في الطائرة أو عدت إلى النوم.

قالت ضاحكة: ستكون الأولى بلا شك. سامحيني، كنت في مزاج رديء، سأهاتفك قريبا.

أغلقت جهازها بعد أن محت منه كل شيء، ثم ذهبت وأيقظت غسان تطلب منه إيصالها إلى بقالة أشرف.

نجوع ونجوع

إنه الرجل الذي يوقظ الجميع حين يشتهي أن ينام سعيدا، لم يصدق يوما أنها تحبه، ولم تستطع هي تصنيفه بتحديد ويقين، الأغلب أن هذه المرحلة من الجهل بالمسميات والتخبط بين المشاعر المتناقضة هي الحب الذي نفتش عنه بغباء وضياع. الحب هو هذه المرحلة. وما بعد الحب، أي ما بعد هذه المرحلة هو اشتعال تضمحلٌّ بعده الدهشة ثم تنطفئ.

الحب هو عندما تطلب نجوى من أشرف بحياء أن يبيع جهازها المحمول؛ لتشتري بثمنه شيئا تملأ به يديها قبل أن تدخل بيت فراس، فيلبِّي طلبها وهو يعلم أن الأنثى لا تلجأ لرجل إلا في سبيل رجل، وهو يكتوي برائحتها على عتبة دكَّانه، وهو يراها تبتعد، تبتعد، تبتعد.

عادت مع غسان إلى البيت فكان من الجيد أن خالدا لم يشعر بهما، تبقَّى بينها وبين الطائرة أن يعود أشرف بالمال وموافقة والدها، ما تقول له؟ هل تعيد إليه أمل الوظيفة الذي غررته به السفر الماضي؟ هل تخبره أصلا أن وجهتها هذه المرة غير لبنان؟ هل تبكي على صدره وتسأله أن يدعو لها بالتوفيق فتخجل السماء ويغضب الله فيغضب معه كل شيء؟ انتظرته عند الباب إلى أن أطفأ سيجارته، إنه في الأيام الأخيرة يدخن نصف سيجارة فقط؛ لأنه لم يعد يحتمل الموت أكثر مما فعل، خلَّقت حُجَّة أنثوية بينما يخرج الدّخان عبر نافذته المفتوحة إلى صباح الوطن، لم تفلح مع حِسِّه العسكري القوي ساعتها، فقد طلب منها الجلوس وسألها حتى تلعثمت.

«كفاكِ يا طفلتي سفرا. إننا في وطننا حيث يجب أن نحيا مما يحيا به ونموت مما يموت به. سوف يُشفى من جراحه قريبا، فلا تتسرعي بالسأم منه. سوف يعود حرا كصقر. لا أمنعك من السفر ما دمت حافظة وطنك هنا في رأسك يا حبيبتي، ولا أمنع أحدا يحفظ وطنه من أن يسافر في طلب العيش. ولكننا نعيش ميسرة ولله الحمد. ستفكرين في فطور الغد، إذن فلا تفكري. إن غدا زمن آخر والزمن الآخر والذي بعده يوزِّع أرزاقهما ربٌّ واحد. فلا تعجبي لو لم يتبق لنا من هذا البيت سوى جلودنا أننا سنفتأ نجوع ونجوع، ثم نشبع قبل أن نموت».

وبزاوية أمل منفرجة، عادت تستعد للسفر بعد أن ألقى بين يديها كلمات تحتمل الموافقة والرفض. إن والدها يحبها كثيرا، ويعلم أنها تريد أن تعيش.

ظُهرًا، طرق الباب أشرف، ففتح له خالد...

شيء يشبه الوطن

إليه.

هزمت نفسها والجميع؛ لتنتصر على استخفافه بإرادتها، باعت آخر أشيائها، محت روايتها، بصقت صمتها في وجه الكلام الذي قيل والذي سيقال...

في المطار، تأخرت خمس ساعات في انتظار نتيجة صلاحية جواز سفرها للخروج من سوريا، كانت تجلس على أحلامها بجوار عجوز تنوي زيارة ابنتيها المتزوجتين في السعودية، تجلس متشبِّثة برقم تذكرة أرسلها إليها متأخِّرا، وهي قلقة أن تفاجأ بإخفاقها في اجتياز الحاجز بين أن تحلم وأن تحقق، أن تتهوَّر وأن تنفِّذ، أن تحب وأن تضحِّي، وعند العاشرة مساء هاتفها:

- صغيرتي، ما كل هذا البعد؟

ردت بجفاء:

- أنت قاس ومتخلِّف!

رد بغرور:

- توقعتُ أن يفقدك الحنين سيطرتك. متى أسعد بقدومك؟

- ألست تعلم كل شيء؟

- أنا لا أعلم كل شيء، عزيزتي. أستطيع أن أعلم أنك في المطار وتحترقين انتظارا في مؤخرة طابور عربي.

- لا تشمت بي. سأغلق الخط.

قال معتذر:

- سأعوضك كل الساعات التي تعبتها لأجلي، سوف أرسل لك عنواني؛ لأنني قد أفوِّت فرصة استقبالك أيضا بسبب انشغالي في مدينة أخرى، لن يكون البيت غريبا!.

فاجأها بهذا البرود، أي انشغال هذا الذي يؤخره عن استقبال الأنثى التي أرادها أمًّا له؟ قالت تنهي المكالمة:

- متخلِّف!

- ابقي بخير.

أحاط برأسها وأفكارها صداع شديد، أحوجها إلى شرب شيء في انتظار رسالته وإذْن إدارة المطار لها بالمغادرة، ثرثرة العجوز تلك ألجأتها إلى شراء قهوة يعادل ثمنها عشاء ليلتين، وقبل أن تنتهي من شرب قهوتها الرديئة إرضاء لضميرها الاقتصادي، نودي بالوجهة التي هي وجهتها ووجهة العجوز ووجهة الكثيرين، فرمت الكوب مع لعنة مكبوتة ودعوة تحترق... كل أولئك انتظروا مثلما انتظرت، جاءوا على أمل الحصول على عمل، وبعضهم يشتاق لمكة، وآخرون كثيرون يريدون السفر فحسب، كلهم تأخروا عن مواعيدهم؛ بسبب حرص الإدارة الشديد على التفتيش عن غاياتهم الدقيقة، وأسباب خروجهم من الوطن، حين فشلت أشعتهم تحت الحمراء في الكشف عن حياتهم فوق الحمراء وفوق كل بؤس.

ساعتان إضافيتان في الطائرة استهلكتا طاقتها، فعند الثانية عشرة ليلا أنهت صراعا طويلا جدا مع شفتيها، وأفلتت من قيود ضميرها الذي يشتاق إلى الجوع والخواء، الذي يتصور خالدا وغسان. كان همُّ ركوب سيارة أجرة في وقت كهذا يفوق همها بدخول بيت رجل دون استقباله، كيف يعيش هذا الرجل؟

ما أصعب أن ننزل بمطار لا يستقبلنا فيه سوى فرحنا بالوصول أخيرا! كان أنور ينتظرها عند البوابة في سيارته. فقد نهاه أن ينزل إليها مهما اضطر إلى النزول، لا يريد أن تشعر أنه أرسل رجلا غريبا لاستقبالها، كما أرسل من قبل نادلا لاستضافتها.

كانت تبحث عن سيارة، أجرة، وبتلاعب قدري ركبت السيارة التي أراد أن تركب، وبصوت ملؤه التعب قالت لأنور:

- حي الحمراء. منزل الدكتور فراس أبو القاسم.

اطمأنت حين أومأ برأسه كأنه يعلم المكان، ثم تناولت هاتفها من الحقيبة وهمست لشمس برنَّة بخيلة، وهي ترجو أن تكون مستيقظة؛ لتثرثر معها. شعور بالفرح والخوف والتعب والنشاط والخزي والتردد والمجازفة كان ينتقل بها من حال إلى حال وهي تستسلم له وتحاول أن تؤمن بأنها ترتكب الخطأ الأجمل في حياتها، مرتبكةً كانت كفأرة تحيط بها الأصوات والعصيُّ من كل الجهات، تتفكر في ظنون أبيها الذي كذبت عليه كذبة صعبة كهذه. الخروج إلى السعودية أمر عسير في هذه الأيام، إلا أن كلمة فراس يسرت لها كل شيء، ووضعتها وسط المعركة الحقيقية بين حاجته إلى أمٍّ وحاجتها إلى وطن هادئ.

أما هو فخرج إلى مدينة القطيف في مهمة تجارية لم يحب أن تبقى في جدول أعماله وهو معها، تخلص من معظم أشغاله وكلف بالبقية مدير أعماله ثم لم تتبق غير هذه المهمة التي انتظرها وخطط لها طويلا، كان حزينا بعض الحزن، بعد أن علم بأن كل محاولات أهل القرية في تخفيف مدة سجن شوبق فشلت، وصار حتما عليه ألا يراه خمسة عشر عاما أو يزوره بوجه مهشَّم لم يتحمَّل خدشا واحدا من أجله، كل البلاد بلا شوبق الآن! ولكنه لم يشعر بهذا كما شعر به وهو طليق كالهواء، إنها لا تخلو من أحدهم البلاد بل تمتلئ حين يكون محالا أن نصادفه أو نعثر عليه، لم يحزن شوبق ولم يكترث، كل ما أعجبه في السجن هو أنه لن يكون مطالبا بحماية رأس والده والتخلي عن كل شيء لأجله. بعض السجون هي الحرية بأرقام عنابر، سيدخن ويسهر ويرفع صوته ويبكي بكل ما فيه من طفولة لم تكتمل. «لا شيء لا يوجد في السجن» هذا ما قاله لفراس قبل أن يغلق هاتفه هاربا من مثاليته ورفضه المتكرر...

أوصلها أنور إلى البيت وأخذ منها ثمن الأجرة، نزلت كطفلة تبحث عن والدها في الظلام، فجعها اتصال شمس المتأخر فأطفأت الهاتف وواصلت الخطو المرتعش إلى باب منزله. قبل أن تدخل، حاولت قياس مساحة البيت من الخارج، فانقطع مدى رؤيتها وهي لا تزال تتبع نهاية الجدار... ما هذه الحياة التي تقوده إلى باب بيتهم وكل هذه السماء سماؤها؟ كيف لم يشبع من هذه المساحة؟ كيف يضيق صدر في جنة كهذه؟ قالت الجملة الأخيرة وهي تدخل وتشمُّ رائحة النعيم وتضحك بسخرية من بذور القرنفل التي جلبتها هدية له، استقبلها البواب، ارتبكت وهي تقول له:

- منزل الدكتور فراس أبو القاسم؟

لقد شعرت بالضياع وهي على عتبة اسمه، يا لهذا الرجل الضائع غير العادي! كان منطقها غائبا ساعتها وإلا كانت ستتأكد قبل أن تفتح بابا لا تعرف إلى من يؤدي.

أجابها البواب متعجبا:

- مرحبا بك. نعم. تفضلي.

قالت تعتذر:

- كان العنوان في هاتفي ولكنه انطفأ فجأة. شكرا.

ابتلعت موجة خوف مالح، وواصلت المشي، لم تكن تدري أين ترتاح وأين يليق بها أن تكون حين يأتي ليرحب بها؟

الأنثى تحب من أماكنك ما تحب أن تكون فيه معك، لا ما يجب أن تجدها فيه. لا غرابة إذن ألا يجد كاتبة بأدب نجوى في المكتبة، ثم يعثر عليها في فراشه، في غرفة يبدو أنها خصوصية، في المطبخ، أو يجدها خارج البيت. لو أوت إلى غرفة من الغرف وألقت حقيبتها ثم استلقت لكانت عاهرة، لو

دخلت المطبخ وأعدت له طعاما قبل أن يأتي لاتهمها بتزوير حبها له ورغبتها في أن تكون زوجةً لا أمًّا، لو دخلت المكتبة لكانت الأديبة التي لم يحبها يوما، ولكنها قررت انتظاره على طاولة خشبية في الخارج، ولن تفعل هذا إلا أمٌّ حقيقية.

دائما تنتصر على الاحتمالات، والامتحانات، والشكوك التي يصنعها في طريقها إليه، فهي تخيِّب توقعاته كل مرة وتلوِّح بيديها من حيث لم يحتسب، أعادت تشغيل هاتفها، اتصلت به ولكنه لم يجب، وبينما هي تحاول معاودة الاتصال، بزغ اسم شمس تماما في الوقت الأنسب.

ردت بسرعة:

- لقد جاء بك الله، وإنني لمحتاجة إلى الحديث معك.

- لم تجديه؟ أستطيع أن أقسم لك.

ثم ضحكت بشماتة:

- عاقبيه على عقوقه هذا واغضبي منه، الرجال لا يحبون الأنثى السهلة.

قالت بضجر:

- خلِّصيني من تعليماتك هذه أرجوك، أنا أعرف كيف أهزمه، ولكن اسمعي، أنا الآن في منزله، ولا أدري أين أذهب، هل يجدر بي أن أدخل؟

أجابت شمس ساخرة:

- إذا تيسر لك أن تختبئي خلف شجرة ثم تفجعيه فور اقترابه منك فافعلي.

- تسخرين؟

- كلا. إن كنت أنت التي تسخرين فأعلميني. أين أنت بالضبط؟

- شمس سأغضب منك، قدِّري غربتي، إنني في الحديقة.
- كالمتسوِّلات؟ ادخلي يا مجنونة.. ادخلي يا بدويَّة.
- ...
ضحكت بكثرة، ثم اقترحت عليها:
- قد يحب أن يشمَّك في ثياب سفرك، ولكنه لن يرضى ألا يجدك في منزله، سيعدُّها مكابرة.
- أين؟ حددي لي مكانا، أرجوك.
- على الأقل في الصالون... صدقينــي لن تسعده فكرتك هذه، احتفظي بها لروايتك.

في أكثر من مرة، أدركت أن شمس هي الأنثى «السهلة» التي تحذِّرها منها، ولكنها لم تسئ الظن بها. مشكلتها أنها تنصحها بما يجب عليها لا بما يليق بها، وهي على كلن ليست بحاجة إلا للثرثرة معها.

عرض عليها خادمٌ شرب شيء فطلبت ماء باردا. وحده العطش لا يمكن أن تقاومه في خدمة كبريائها، ووحده الماء لن يستطيع أن يضيف إليه لمسة ثراء كما يضيف إلى كل شيء بإحساس وأناقة. جاءها الخادم بكأس الماء في سيارة منزلية، ثم عاد، وبقي إعجابها يـمشي على العشب...

عند الرابعة فجرا، اكتمل سهرها يوما كاملا، ولكن المكان أعانها على البقاء يقِظة، وأعانتها النافورات التي تحيط بالطاولة وبكل طاولة في الساحة الواسعة، فهذا يلطِّف الجو، ويهدِّئ الأعصاب، ويعين على الصمود. الماء في بيته رمز للثبات والتحدي، سوف تكتشف في كل مكان ماء يجري بالحياة ويغري بالارتواء حتى الغرق.

خطر ببالها خالد وغسان بينما تتأمل سماء آخر الليل، فشعرت بحياتهما والهواء الذي يتنفسانه... شيء يشبه الوطن كان يقول لها: «ما أجمل أن ننام بين جدارين».

أخشى عليك أن تكبري

وصل صباحا عند السادسة، وكانت قد اجتازت كيلويْن مشيا وهي لا تزال تغالب تعبها، اندهش حين علم أنها لم تدخل البيت منذ وصلت، وفي عجلة بحث عنها في الحديقة، فوجد أنها قد ابتعدت عن الطاولة التي تركت عليها أغراضها. إنها ساعة واحدة سيتمنى أحدهم فيها لو أنه تعلَّم قيادة السيارة، وهي حين يريد أن يصل إلى أنثاه بسرعة ولا يستطيع! أدرك أن المسافة بينهما كبيرة بما يكفي لجعلها تتوقع أكثر من طريقة لاستقبالها، فقرر أن يفاجئها بأنه يمشي خلفها... سيان من يمشي في الخلف ومن يمشي إلى لا أحد، في النهاية سيكونان في الخلف معا.

كان ساعتها يرتدي قميصا أبيض وغترة حمراء، ومن عنقه تتدلى عدسة القراءة، كم ستكون سعيدة حين تراه يستقبلها في ثياب غير مبتذلة، وبعطر غير الذي تعمد تسريبه إلى ذاكرتها ذلك الصباح من أيار، كم ستمشّطِ ذاكرتها وتتهيأ له إن هي رأته يمشي نحوها أو خلفها كما أرادت، ولأنه مجنون بها، أراد أن يحسب المسافة بين إحساسها به وإدراكها له، بين أن تشعر

بوجوده وأن تراه، وما ستفعل لو أنها بصرت به وهو لم يزل بعيدا؟

كانت هي تواصل المشي وحالة أدبية تسيطر على إدراكها، لقد عادت إلى روايتها المنسية، وجدت لها اسما ونهاية، هذا بعد أن صارت نسيانا ومشروعا من المشروعات التي لم تكتمل، كم ستكون صادقة تلك الروايات التي لم نكملها، تلك التي في أدراجنا ترتقب احتراقها الأخير، كم سينتظر أشخاصها عودتنا؟ كم ستتبدل طقوسها وتضاريسها في غيابنا؟ كم سنحتاج إلى العودة من جديد لنكتب بحجم الصدق الذي كتبناها به؟ الروايات التي تخرج أخيرا ليست هي الفكرة الأولى التي أشعلت روح الثرثرة فينا، إنها خلاصة انهزامات، موجز انقلاب ورقيٍّ قامت به شخصية علينا، إنها قصة اضطرابنا بين عاطفتنا تجاه أحدهم ومنطقنا في مسار السَّرد، إنها دماؤنا بعد أن ثارت علينا أحزانها، سُمِّي أبطال الروايات بهذا الاسم؛ لأنهم استطاعوا تغيير مجرى الأحداث وفرضوا حزنهم، لا لأن النهاية تريدهم كذلك ولا لأننا نحن نريدهم أبطالا. غاصت في أوراقها ولم تتعب إلا بعد أن ذبلت أفكارها، قررت العودة، ولا أمل في يدها يضمن لها أن تواصل كبرياءها، كانت تفكر بالدخول لأن شمس الصباح الرقيقة بدأت تقسو على بياضها، لكنها حين لمحته يتقدَّم إلى جسدها الغارق في تعبه غيرت رأيها. ها هو سيد البيت، ها هو سيد الحنين والمتاعب والأشياء الصعبة، ها هو رجل القرارات والأحزان.. كانت ساعته تشير إلى أنها لم تدرك وجوده خلفها إلا بعد ربع ساعة، ابتسم ساخرا، ثم أطبق فمه «قبل أن يجف»، ثم رسم بذراعيه زاوية شوق؛ ليثير رياضيات جسدها وينظر ما يصنع. وقفت كقطَّة فاجأها نور سيارة قادمة

بسرعة، جفلت، اتسعت مسامات جلدها فتعرقت أكثر، عطش شديد أحاط بشفتيها وهما تنطقان بحرارة اللقيا، دفعت قدميها نحوه عندما حثَّتها قامته المتصلبة على الإسراع إليه، كان قد أغلق زاوية شوقه وهو يتحسر على الربع ساعة التي لم يكن فيها أكثر من شريد يتسكع على رصيف أنثى، لم يكن أكثر من رجل عادي.

قبيح هو الشوق الذي لا يكون الجري وسيلة وصوله الوحيدة، أيُّ قلبين مشتاقين هذان اللذان يزحفان نحو بعضهما كمتبارزين على ساحة موت؟ ما سيصيب الكبرياء لو جرى وتنفَّس بشدة وانغمس في قبلته يرتوي، ما سيصيبه لو جلَّل روحه بأنفاس سفرها الطويل إليه؟ ألا يكون الإحسان جزاء وافيا وعادلا للإحسان؟ فما يكون جزاء الحب وهو إحسان الإحسان؟

ولحظة كانت المسافة بينهما كافية لانبعاث رائحة قربه في جيوب أنفها، كان هو يوسع ابتسامته وهي تنبض كأنها قلب، أحدهما يوسع رقعة حضوره، والآخر لم يكن يهمه سوى ما عليه أن يفعله لحظة تمتلئ جيوب أنفه وذاكرته وتمتدُّ شفتا حيرته تطلب الخلاص.

اقتربا.. اقتربا.. أوشك البحران أن يلتقيا وبينهما برزخ من المسافات، وهما لا يجرؤان على إثم قبْلة، أعاد زاوية شوقه، تلبَّسها ارتعاش الالتصاق الأبدي به، قال وهو يضمها بأربعين سنة من اليتم:

- صغيرتي التي أحبها.. أقسم أن الله سعيد الآن.

بكَت أخيرا، بكت إلهته الجميلة، بكت وهي تسأله:

- فراس، كيف تقسو؟

قال وهو مخبئ ملامح وجهه في تموجات شعرها المنسدل على كتفها المتعب:

- كيف حالك يا قرة العين؟

فتحت فمها، أطبقته، فتحته ثانية بعذوبة ابتسامة مبللة بالدموع:

- إنك تؤلمني، هذا عناق قاس.

- من قسوة الشوق يا صغيرتي. كيف ترين مساحة الحديقة؟

أجابت باستغراب:

- كالسماء.

- لن تصدقيني إن أخبرتك أنك أوسع منها.

فتح عينيه بعدها كأنه أفاق من سكر، نفض عن أهدابه انكسار طفولته التي ولدت في شعرها، حين أوشك أن يقول لها «أنت أمي من الآن»، حرَّف حبه وقال:

- إن رائحتك هي الأمومة البكر.

قبَّل راحة يمينها بينما يشبِّك أصابع يساره بيسارها مرورا بعنقها وهو يقول:

- أنا حزين لأنك لم ترتاحي، أهكذا تفعلين بي؟

- كلا، ستفرح إن أخبرتك بأن روايتي ستكتمل قريبا، هذا المشي الطويل جدد أفكاري.

وضع يدها على فمه كأنه يهيئ لسانه لردة قول أرق؛ لأنه يعلم أنها لا بد أن تكون لامسته في روايتها، هذا ما يفعله أصحاب الروايات بنا. وبعد تفكير قال:

- سأتكفل بطباعتها، وترجمتها إلى اللغات التي تحبين، وتوزيعها إلى أقصى الحب.

سألته:

- وأين هو أقصى الحب؟
- الآن؟
قالت تتهرب من الآن:
- حين تريد توزيعها.
سكت، وهي تخاف سكوته، فأعادت صياغة سؤالها:
- أعني لن تخرج الرواية من مكتبي إذا كنت تنوي إيصالها إلى أقصى الحب. مكتبي هو أقصى الحب.
بهدوء قال:
- لا تشرحي لي يا صغيرتي. استطردي، تكلمي أكثر، لكن لا تلقِّنيني.
وواصل:
- إلى حيث يظنون أن العرب ما زالوا بَدْوًا يحلبون الإبل ويرتجلون الشعر الصعب، إلى حيث لم تصل رواية عربية.
- تعلم أن هذا يفسد براءة الرواية؟ أين هي غابة الشوكولا؟ لم آت لأجلها ولكني لن أرفض التجوال فيها.
تنهَّد قائلا:
- عادت صغيرتي تلقِّنني.
فقالت تدافع عن حضورها:
- أنا لست صغيرة.
- أخشى عليكِ أن تكبري.
نده على جرسون الحديقة، ترك خيارات الإفطار بين يديها، واشتغل بالعبث بشعرها. كانت هي عالقة في غموض أمنيته الأخيرة «أخشى عليك أن تكبري»، فجاملته وطلبت طبق مقبِّلات وماء باردا. كيف يكون الإفطار مع الأثرياء إن لم يكن كإفطار الفقراء؟ أيكون لحما أو دجاجا أو سمكا؟ كلا...

لم يضف إلى رغبتها أي شيء وواصل العبث بخصلة تعلَّق بها، كانت تنحدر على عظم ترْقوتها فتشكل فتنة فريدة بين كل فتنها في ثوب سفرها السكري.

- أعشق الشعر البني لو تعلمين.

استدرك يداعبها:

- ليس لأني أصبغ بعض شعري به.

كادت تسأله عن السبب إلا أنها خشيت أن تزعجه، ابتسمت كشمس الشتاء السقيمة، أمالت رأسها على رأسه المتوسِّد كتفها وهي تقول:

- حتى أنا لم أصبغه.

رفع رأسه، قال بضجر:

- هذا ما يسمونه نعيما، ستنامين جيدا أثناء غيابي.

- ولم الغياب؟

- بعد قليل سأذهب لعملي، أنا آسف جدا، ولكنني أريد أن ترتاحي حتى أعود.

بصوت منزعج قالت:

- لم أكن لآتي لولا أنني توقعتك في إجازة.

ناولها لقمة:

- لا تندمي على هذا المجيء الذي ملأني بالسعادة، أنا أعود عند الثالثة ظهرا، سآخذك اليوم في جولة طبيعية حول أزهار البيت.

تذكَّرت هديتها الصغيرة: بالمناسبة، تذكرت، جلبت لك هدية.

فتحت حقيبتها تبحث عنها، أخرجتها قائلة:

- ادع الله ألا يكون أهلكها طول السفر.. إنها بذور قرنفل.

أبدى فرحه بها. أي بقاء أمَّلته بنبتة كلها روائح؟ أي خلود أرادته نجوى في ذاكرته؟ إننا لا ننسى أبدا أشخاصا أهدوا إلينا شجرة، لا ننساهم أبدا، كما لا ننسى الله وهو يرينا قدرته في حياة الشجر وتقلُّبها وكرمها وحيائها وحبها.

قال معترفا بالنقص: وحده القرنفل ينقصني. سأزرعها في وسط البيت، شكرا جزيلا.

صَرْحٌ ممرَّدٌ من أحلام

وجد فيها أمَّهُ التي لم يجد، اشتمَّ في شعرها طهرها وصفاءها وصبرها، قبَّل في يديها نقاءها وعطاءها ودفئها، ولكنه خاف أن يفقدها إن هو ناداها بالأمومة، خاف أن تتولَّى عنه إلى آخر يريد حبيبة، أو يبحث عن زوجة، خاف ألا يكون أنصف الأربعة وعشرين ياسمينة التي ترتديها، والعينين النائمتين على الحلم والوجه المنطوي على أنوثته وعطره، خاف حد الفرار منها إلى عمله فخرج يجدد قراراته ويحاول ألا يستسلم وينقاد لفراس الطفل القرويِّ المحروم، الذي بدأ مشوار حياته بكابوس اليتم المزدوج والحزن المرتسم على كل وجه وعلى كل جيب وعلى كل عتبة بيت، لم ينكر اشتهاءه إياها، ولكنه خاف أن يحرم لذة امتناعها وصمودها وقوتها، وأن يفقد كلماته الحرة، واعترافاته، وجنونه، خاف أن يحيد عن الحاجة التي ألقتْه بساحلها وينسى اليمَّ الذي جاء منه، وأن ينسى تابوت الطفولة التعيسة الذي

أخرجه منه ثراؤه، وأن ينسى أنها لم تكن أكثر من «ساعات أخرى» يشغل فيها عقله بالتفكر في ملامح أدبها وعذاباتها.

بقيت هي في حيرة تتجول في البيت، وتبحث عن غرفة تنام معها فيها كل شكوكه وافتراءاته، خرجت والشمس التي كانت جمالا وحياة قبل ساعتين قد قست وأضحت شقاء لا يحتمل.

وحول المسبح، في تخطيط دائري محكم، قد رُصَّت غرف مستطيلة ومتجاورة، تتسلق عليها زهور الجهنَّمية الوردية وقد شَذِّبت بعناية. انتهى بها السهر إلى الغرفة الأكثر امتلاء بها في منزله. يا لَتشرين الذي يعذّبها! دخلت، لم تكن الغرفة ذات طابع ثرائي بقدر ما كانت تشبه غرفة أم، تخلصت من حقيبتها، غيرت ثوبها، انكفأت سكْرى ومتعبة كما تسقط شجرة تحدَّت الرياح كل حياتها. وكالصِّبى، كأول رائحة شممناها، كلحظة انبعاث أحد من موته، كلحظة انتصار، كمشوار طويل انتهى بأمنية تحققت، كان شعورها مختلفا وهي مستلقية بإعياء اليوم الثاني من السهر المتواصل، كان شعورا يلغي كل المشاعر المصنَّعة حولها، كان شيئا مما يجده المرء حين يدخل غرفته وهو مغمض عينيه.. وبينما تستنْوِمُ، أدركها فضول ماضيها معه ومع جوعها وانهيارها، أدركتها الحاجة للبحث عن سريرها الذي فقدته جوعئذٍ وهي لا تدري، عن آثار لعاب أحلامها منذ عرفت كيف تحلم، عن رائحتها الأصدق والأوفى والأليق بها، أيكون قدرا قاسيا أم رحيما؟ ذلك الذي يوصلنا إلى آلامنا الشهية مرة أخرى. هي لم تجئ لتستعيد سريرها، ولم يخطر ببالها أنه اشتراه لينام عليه، لم تتوقع أن تمسَّه أو تحلم بمساسه، أيعقل أن يكون هو؟ بغطائه البحري الذي جاعت أسبوعا كاملا لتشتريه، لم لا يكون الغيب بسيطا ولو مرة؟ لم يجيء معقدا، وكثير

التراكيب، وممتلئا بالتفاسير المؤلمة والذكريات التي ظنناها ذهبت مع الحزن؟ انقلبت على وجهها. تنفّست بعمق الحاجة إلى تاريخها وهزائمها وأخطائها وتناقضاتها على ذلك الفراش، تنفّست كأخْشم يحاول للمرة الأولى ألا يكتشف أنه فقد حاسة ثمينة، لا تخيِّب حاسة الشمِّ أحدا، إنها لذكريات خالدة تلك الروائح، لم يخب إحساسها كما خاب مع وجوده خلفها صباحا، لقد كان فراشها بكل أقداره وأحداثه، بنومه وأرقه، بأنفاسها ودموعها، بكل مساحاته وأزمنته، بكل مخاوفه وإخفاقاته وعصيانه، ليس عاديا فراش تنام عليه نجوى، قامت تلفُّ حوله كمن يتعرَّف إلى ضحية، تشتمُّه من بعيد وتخاطبه بأنفها، تتحسسه بأصابعها، هكذا تنقلب علينا حواسنا إن نحن أهملناها...

إنه صرح ممرَّدٌ من أحلام، ومجد جسد وطهارة قلب، إنه حقها الذي لن يفجره الوطن إلا معها، إنه بداياتها وخطوات نهديها الأولى، إنه طفولتها الأبدية، كيف له أن يحاصره في غرفة خارج قصره؟ كيف لها أن تعود إلى فراشها الأرضي هناك بعد أن عرفت مكانه؟ كيف يحدث أن يكون الفراش الذي ننام عليه ونقترف عليه الحياة الخالصة صدفة من الصُّدف، وأثرا تاريخيا نكتفي بالنظر إليه وتصويره، ثم نخرج خالين منه وخالين من قدرتنا على استعادته؟

عند الثانية والنصف، لم يكن النوم بعيدا عن اللاذقية يلذ لها، لقد نامت لترتاح لا لتتلذذ، فتحت عينيها، تصفحت وجهها في المرآة، كيف ستصدق أنها نامت إن لم تنس شيئا مما فكرت فيه قبل أن تنام؟ قامت تتهيأ لعودته وما من شيء سيعجبه منها أكثر من أن يراها ووجهها لم يزل نائما، هو الذي أدمن فراشها وأشياءها الطبيعية. يحب الرجل جمال المرأة حين يشتهيها، أما

حين يريدها أمًّا فلن يكون أحب إليه من أنفاسها التي لم تقم من نومها بعد.

زهرةٌ أحبَّتها نجوى

طرق الباب بينما كانت تختلي بأوراقها عصرا، وكان بإمكانه أن يفتحه، إلا أن ارتباكها وهي تدعوه للدخول أكَّد له أنها كانت بعيدة عنه، كان خلابا كما لم تره في لبنان، كالرجل حين يكون في بيته، أو كما وصفه لها خالد، احتباس لفظيٌّ اعترى لسانها الذي كان لتوِّه يثرثر بلا اكتفاء، هل نرحب بأحدهم ونحن نسكن بيته؟ كم يجيد هذا الرجل أن يكون غريبا أو ضيفا أو مسكينا أو مغشوشا، كم يجيد أن يكون ضعيفا بالقدر الذي يمكِّنه من أن يفعل ما يشاء معها، كم يجيد تبرير العبث بشعرها وقد عانت كثيرا في لـمِّه بأسلوب كلاسيكي فتّان!.

قال وهو يدخل:

- كم كنت أشتهي أن أراك وأنت تكتبين!

وهو يقصد: أن أمسك بك وأنت تكتبين.

قالت تتحداه:

- انظر إلي وأنا بين يديك. كذا أكون وأنا أكتب.

رفع شفتيه قليلا عن شعرات رقيقة أفلتت من مشطها، أعادهما بنهم، وقال يحقنها بحرارة أنفاس غاضبة:

- ما أشهاك إذن! سنمزّق هذا الدفتر.

أدرك أنها لم تكن تقول «انظر إلي» فحسب، بل تتهمه بالعجز عن إدراكها حتى وهي بين يديه، أو بالفشل في التعرف إليها، هو الذي يدعي أنه قرأها أكثر مما قرأت نفسها.

- هيا، فلنفعل، الرواية تكون أسهل وأبطالها أحياء يرزقون.

كانت تكتب منبطحة على حافة السرير، وكان هو جاثيا على الأرض يلامسها كما يلامس المراهق جسد أول أنثى في حياته، دفن وجهه في رقبتها قائلا:

- سأمزق هذه الرقبة.

شعرت بضياعه وهو لا يدري كيف يفهمها، كيف يفسر كلماتها الغامضة، كيف يحيط بها تماما، وشعر هو بأنها هي الأنثى التي فشل وهو يكلِّمها من الخلف ويحبها من الخلف ويقبلها من الخلف، فشل في إظهار سيطرته على المكان أول مرة وها هو يفشل في تمزيق دفترها الذي لا يشك - كما لا يشك أنها معجبة بقبلاته- أنها مزقته فيه.

قالت تنفكُّ من سخونة فمه الثائر:

- هذا الفراش وثير. ارتحت وأنا أنام عليه كما كنت تريد.

أدرك أنها تعرفت إلى فراشها، لكنه علَّق تعليقا أساء إليها:

- اشتريته من أنثى كانت أحوج إلى بطنها من ذاكرتها فيه.

علم بأنه آلمها، لكنه لم يعرف كيف يعتذر، فواصل:

- ولكنني أنصفتها في الثمن. هي بلا شك تتمنى أن تبيع ملابسها الآن.

التفتت كبرياؤها إليه، ابتسمت الكبرياء الوردية، تضوَّعت من وجهها أنفاس لم تفارقها رائحة النوم وهي تتحداه مرة أخرى:

- إن كنت أنصفتها الثمن حقا فستشتري آخر!

ضحك وهو يحيط وجهها بيديه، ودعاها إلى الخروج معه... إنه معقد من نقاشات الفرش منذ هند، مرورا بأخريات، ثم جين، ومن بعد جين إليها، لم يفلح في الكلام معها على فراشها، كانت هي متعصبة لحضورها وشهوتها وتمنُّعها وخوفها، وكان هو تائها بين غوايتها وكبريائه. لم يعرف كيف يثبت لها حيرته بين حبها وحاجته.

اصطحبها إلى الخارج، كانت سماء تشرين صافية وبحرية، كانت تغري باللعب والرقص والركض والأشياء التي لا يستطيعها بسبب عاهة ثرائه، الأشياء التي لم يفعلها معها وهو يراها تنتظره خارج منزله كما تفعل الأمهات.

قال وهو يمسك بيدها:

- زهور الجهنَّمية كما ترين.

أردف ببعض التفصيل:

- جلبتها من باريس عندما زرتها لأول مرة، تبدو دافئة، أشعر بالأمان كلما تذكرت أنني أنام في حضنها، إنها تتسلق بجنون الطفولة وبراءة الأحلام، بإمكانك أن تقطفي واحدة.

نظرت إليه بعينين ضاحكتين ومتسائلتين، أجابها:

- طالما في حوزتك يد واحدة.

وبإطلالة على ما أبصراه من الخضرة الممتدة، صمت قليلا، ثم قال:

- أنا لو لم أكن أستاذا لأحببت أن أكون بستانيًّا. تأملي هذه المساحات الملوّنة. إنها جمهور من الأحداث والمتاعب والأزمنة والذكريات. إنها حفل يتكلم فيه الله وحده.

علقت مندهشة وخائفة:

- سبحان الله.

جاء الطباخ بالغداء كما خطط له، طلب منه الانصراف، وبدأ يرتبه على الطاولة وهو يصف لها براعته في اختيار الألوان وتشكيلها بذوق رفيع:

- ضحيت بالكثير حتى يبدو بيتي عالما آخر يلمُّني من شتات الخارج، لم أبحث عن مهندس زراعي ولا اشتريت مخطط حديقة، حتى الأفكار لم يقترحها علي أي خبير، كان ذوقي هو السيد في كل هذه الجنة التي ترين، ثلاثة عشر عاما وأنا أشذِّب حاجاتي ووقتي في جسد هذا البيت، ولا أحد سيصدق أن هذا العمل من صنع رجل فشل في الرسم طيلة حياته.

غازلته:

- بديع! أحلامك تبدو جميلة مثلك.

عززت صراحتها بضحكة زهرية جعلته يقول:

- ينقصني أن أرسم هذا الفم السماوي، لو عرفتك قبل أن أنشئ هذه الحدائق لكانت أبدع مما هي عليه الآن.

اقترب منها بعد أن فرغ من ترتيب الطعام، جلس بجانبها، قبَّلها، فكان لفمها المبتسم مذاق النعيم وهو يقبله، ثم جلس إلى جانبها، فقالت تطلب النجاة من شفتيه:

- لماذا لا نتقابل؟

أجاب بسرعة:

- نحن لا نتقابل إلا في مطعم، إننا هاهنا أصدق مع أنفسنا وأبعد عن رياضيات الخارج المعقدة.

قال يطمئن ارتباكها الطفيف الذي بدا عليها بعد أن اقترب من فمها:

- ألا يلهمك كلُّ هذا؟

- جزيلا. وأنت أيضا تلهمني.

لم تحتمل شفتاها عبء اللهفة التي احتواهما بها، لم يراع كونها اللمسة الأولى على شفتين لم تعرفا إثما من قبله، امتصَّ منها بعطشه لا بعطشها، إنه أناني وشكاك حتى في أكثر حالاته حميمية معها.. شفتان ثيّبان كيف تغتالان رجلا بدأ عهدُ يَنْعهما بين شفتيه؟ كيف سيسعها أن تنهيه؟ وهو أول من راقص وجهها، وأول من وأد قامته وهيبته ووقاره في غيمات شعرها، كيف ستقتنع بعد اليوم أنها لم تحبه، ولم ترغب به، ولم تحتج إليه؟ وكيف سترضى أن تعيش معه بعطشه فلا ترتوي أبدا؟ قبلته لم تكن بطولة وفتحا وتاريخا بقدر ما كانت معذرة إلى جسدها الذي سافر ليلتقي به، لم يرد أن يكون الداخل الأول إلى عالمها؛ فالأوائل هم دائما أول من يُلعن وآخر من يُذكر بالخير، ولكنه أراد أن يتضرَّع لأنوثتها أن تتقبل إحسانه، أراد أن يعلمها «*مهارة أنثوية*»، أراد أن يستغفر من إهانتها قبل قليل، فلم يكن من اللائق أن يتحدث أمامها عن صفقة لم يعقدها معها، وأن يتباهى بحصوله على فراشها وهي لا تدري.

أخذها بعد الغداء لمواصلة النزهة ساعة الأصيل، وقد لاحظ تغيُّر مزاجها للأسوأ بعد أن قبَّل فمها.

قال يسلِّيها:

- تبدأ من هنا أزهار البيتونيا التي ستسير في شكل منحنيات من هذه الألوان التفاؤلية، وتنتهي حين تبدأ البيجونيا بتشكيل السجادة المؤدية إلى البوابة الأولى للمنزل، ثم تواصل هذا الانحناء المتفائل لتعود إلى بدايتها هنا بعد أن تطوِّق كامل المنزل برقَّتها ورائحتها، هل يجرؤ فنان على مثل هذا الجنون الزهري؟

أجابت وهي تسير بعينيها مع ثنائي الوردي والأبيض وهما يخلبان صمتها:

- ولم تكون بدايتها هنا وليست في مكان آخر؟

أحاطها بيمينه كما يحيط أب ابنته الأولى مجيبا:

- حيث تقفين تبدأ البداية.

واصلا المشي الذي أضفت إليه نسمات الأصيل رومانسية وصخبا، حتى وصلا إلى مجسم زهري يصف ملامح أنثى متكئة على تلٍّ صغير من العشب الأخضر، انقادت هي لجماله ولفضولها، ولم يرد هو أن يلهمها تعليقا، فاكتفى بالنظر إليها وهي تتساءل من تراها هذه الأنثى التي كلفته كل هذا العناء؟

وصفت المجسم باقتضاب:

- إنها جميلة وحنونة، أنا لم أتصور خيالا كهذا.

- هذا مما لا يخطر بقلب بشر! إنها أمي.

واصل بينما تتأملها بخشوع وانفعال:

- هذه أمي التي رأيتها! سنلتقي بها تسع مرات في أماكن متفرقة، هيا، سأريك اللافندر الذي تكتبين عنه ولا تعرفينه.

إن الرجل لا يتكلم عن يتمه بين يدي أنثى، مهما بلغت منزلتها في قلبه، إلا حين يتمناها أمًّا ثانية. لمحت هذه الأمنية -التي لم يعرف كيف يترجمها- في عينيه وهو يصرفهما لجهة المنزل هاربا من لمعان عينيها، لقد كلفته هذه المجسمات العشرة -أو الأمهات العشر- الوقت والجهد الكثير، إذ يستيقظ كل صباح ليسوي ملامحها ويقطف المتيبِّس منها؛ لكي لا تندثر هي الأخرى كما اندثرت أمه في الغيب، وحين يغيب لأسبوع أو أكثر يعود فيجد ملامحها مطموسة، فيستعين ببلال الرسام، ذلك النحات النباتي الذي نفذ أفكاره بمهارته، يستدعيه ويلبي له

الراحة والمال والسكن إلى أن ينتهي من تسويتها وإعادة البهجة والأمومة إليها.

- حقا؟ أنا متحمسة.

نده أحد الخدم وكلفه بجلب سيارة، ثم دعاها إلى مجموعة أزهار تحيط بجميع النخل الذي ينتشر حول البيت:

- هل تعرفين هذه؟

مازَحتْه:

- في أيّ رواية ذكرت؟

ضحك بعفوية أدخلت السرور إلى قلبها، قلما تقتنص منه لحظة عفوية تشعرها أنها قريبة منه، أجاب بغرور:

- أنا لا أستند إلى الروايات في شيء من حياتي، ولكن إن حدث وقرأت روايتك، سأخصص ساحة واسعة كهتين العينين للزهور المذكورة فيها.

ضحكت بطريقة يصعب تصنيفها، هي تلك التي نفعلها حين نفرح ونخاف في نفس الوقت، فنصدر صوت الضحكة دون أن نفتح أفواهنا، لئلا تخطفنا نظراتهم وأيديهم:

- سأبالغ في وصف الزهور وأُكثر، قد يكون البيت كله لي، من يدري؟

شعرت أنها خطبتْه لما رأت ابتسامة تتخلق في قاع عينيه البعيدتين، فعلّقت:

- ماذا تسمي زهرة كهذه؟

- يطلقون عليها التيجريديا.

أزاحتها عن أنفها الذي عشق رائحتها، تأملتها بسرعة، قالت:

- وأنت، ما تطلق عليها؟

سحب قلما من جيبه الذي فوق قلبه، كتب في يمينها بخط صغير ومتعرِّج:

- زهرةٌ أحبَّتها نجوى.

كانت مذهولة وهي تنظر إليه يعيد القلم ويدها ترتجف على يده الأخرى، مذهولة ومغمورة بأنفاسه، ووسط ذهولها، ووسط تساؤلاتها وارتعاشها، وسط صراحة بياضها، لم يكن ليدعها تقف متجمِّدة كأمٍّ ساعة وداع، فمسح على أنفها بلطف ثم أشار إلى السيارة التي أحضرها الخادم للتو:

- خذيني في جولة.

سألت باستنكار:

- أنا؟

أحاطها بيديه. مشى بها نحو السيارة وهو يهمس في أذنها:

- لا أحب أنثى قبل أن أسلمها أقداري كاملة.

وهو يقصد «حياتي» ولكن بأسلوب الصفقات الذي يهوِّل الأمر ويضخم النتائج ويغري بالموافقة.

كان عليها أن تجازف وقد أصرَّ، شاءت أم أبت، إن لم يكن وقوفا عند رغبته، فلتثبت له أنه لن يحبها ما دامت لا تعرف كيف تتصرف بأقداره، كيف تؤلمه، كيف تسقط معه في توقيت تتساوى عنده الزهور التي أحبها والزهرة الوحيدة التي أحبتها.

قالت تستنجد به:

- غشّشْني أرجوك.

مال بجسده حتى لامس رأسه صدرها، تنفَّست بخفة وحياء، أطلق همهمة طالب كسول لم يعرف الإجابة:

- انظري، أنا لم أقدْ سيارة في حياتي، ولكنني أراهم يدوسون هذا الشيء فتنقاد لهم السيارة.

عاد إلى مكانه، ونظر إليها جادًّا:

- هذا ما استطعت مساعدتك به.

نفذت اقتراحه الركيك. داست على الدوَّاسة التي أشار إليها، فاندفعت السيارة إلى الأمام بقوة، ثم توقفت.

ضحك شامتًا:

- بداية جيدة.

واصل:

- لم تنجح أنثى قبلك في اجتياز اختبار كهذا، هيا افعليها.

قالت وعيناها على الطريق:

- وما هو معيار النجاح؟

وكانت تحاول أن تدوس بـخفَّة كما يفعل طفل سرق سيارة والده. أجابها:

- تحرزين تقدُّما، لا تخافي.

نحو السقوط. تقدُّمٌ نحو عدم كفاءتها لحبه، كانت نبرة صوته تؤكد شكوكها، لا نصاحب شكَّاكًا بدون أن نفكر كما يفكر، سلمها أقداره وهو مؤمن بأن أنثى تحبه لن تعبث بأقداره، هذا تفعله الأنثى الـمحتاجة، الأنثى التي لا تريد أن تحبه هو وحده، لكنها لا تريد أن تحب غيره، إن حبا يستجيب للأوامر ويخضع للامتحانات هو حب كافر، نحن حين نحب أحدهم؛ لأننا راهنَّا على صدقنا في هذا الحب، سنحبه لأجل صدقنا نحن ولأجل رهاننا نحن.

اطمأنت حين انقادت لها السيارة بهدوء، قالت بفرح:

- إلى أين يا حلو؟

- إلى حيث تودين أن أقبِّلك.

- هل ستعدُّ اقتراحي رغبة في قبلتك؟

- على كل حال سأرضيك عن اقتراحك.

يممت يمينًا، أدركتها نشوة القيادة الأولى لسيارة، صفعته بكلمة:

- أنت وقح!

أغمض عينيه وودَّ لو استطاع إغلاق أذنيه قبل أن يسمعها تجرؤ على أخلاقه، لا نصفع أنثى صفعتنا، نحن بهذا نؤيد انهزامنا أمام طريقتها في التعبير عن غضبها، ماذا لو قبَّلناها بشدة؟ ماذا لو أحكمنا عليها قبضة الرغبة المنتقمة، الرغبة الغاضبة والقاسية؟

قال وهو ينحر غضبه بقبلة على عضُدها:

- الوقح لا يقبّل طهرا كهذا، صغيرتي.

وكان يريد: الوقح لا يقبّل إلا وقحة.

سواء أكان يقصد طهرهما أو وقاحتهما، لقد أراد أن يعلمها أنه يتساوى معها في اللغة حين لا تخضع اللغة لشيء مما يخضع له الحب أو الرغبة أو الغضب، لا تحابي اللغة ثريًّا، لا تجامل عظيما، لا تستحي من أنثى، إنها تسقط معانيها على الجميع بكل احتمالاتها وبلا استثناءات. نجوى لم تقصد أن تصفه بالوقاحة حين لم تجد كلمة أخف منها أثرا، كانت تريد أن تلعنه، تصفه بسخرية، هو الذي سخر من إبائها واستعصائها، ولكنها لم توفَّق في اختيار كلمتها المناسبة، لو أنها لعنته، ما كان ليثأر للرحمة التي نزعت منه كما ثأر بقسوة للحياء الذي استأصلته من وجهه، كل ما يفسر صعوبة تفاهمنا مع ثريٍّ هو أننا لن نحظى بغضبه فور إغضابنا له، لن نسمع لعنة بلعنة أو إساءة بإساءة، لقد تعلم ألا يغضب ولا يلعن ولا يسيء إلا عندما يكون الغضب واللعنات والإساءات في صالحه، هذا يصنع من

احترامنا له جبنا، ومن جرأتنا عليه حتْفا، هذا يجعلنا نبدو في عينيه صفقة مؤجّلة ورابحه، أو حاجة عاجلة وشهية.

واصلت السير المرتبك، ثم وقفت به عند مرتفع من حُمرة البيجونيا تتوسطه نافورة ضوئية تعمل تلقائيا عند الغروب.

قالت باعتذار:

- الحمد لله على سلامتك.

نظر إليها للحظة، قال وهو يعيد عينيه إلى الأمام:

- أعيدي إلـيَّ أقداري.

شعرت بالفشل، فقالت بابتسامة مصطنعة:

- كيف؟

متاهة اللغة

- فـي لوحات الفنان الـمكسيكي دييغو ريفيرا، سترين أشخاصا يحملون وردا يثقل ظهورهم، هم لا يقلون شقاء عن أولئك الذين يدَّعون الحب ولا يعرفون عنه سوى أنه الطريقة الـمثلى والـحسنى للحصول على حاجاتهم.

قال لها بصوت عميق الأسى قبل أن يغادرها عند حشد حزين من زهور الكالا الصفراء، قبَّلها على جبينها كما يفعل أب مقصِّر، ثم همَّ بالعودة إلى مكتبه، ندهها من بعيد:

- استعدي لعودتي عند العاشرة. سآخذك إلى غابة شوكولا.

ثُلَّة من الخسائر والإخفاقات والتراجعات والحقائق الأقسى تحلَّقت حولها وهي متورِّطة بزهرة صفراء كأنه أراد بها أن

يقول «حبُّك هذا مريض ومنافق»، تشمها فلا تزيد رائحة الجمال والكآبة فيها عن رائحتها وهي مغلفة بطبقة مثيرة من التعب الجسدي والنفسي. من الصعب أن نرضي شخصا يعيش معنا بوجوه متعددة، من الصعب إرضاء هذا الشخص وحبه وإشباعه واشتهاؤه؛ لأن الحب والإشباع والاشتهاء هي وجوهه التي لن يرضى أن نقدِّس واحدا منها ونتغافل عن البقية، أو نقدس البقية ونتغافل عن الواحد، أو نتغافل عنها كلها ونقدس أنفسنا، أو نقدسه ونتغافل عنها كلها وعنا، إن من المحال أن نتوافق مع هذا الشخص أو نسعد معه أو نمشي إلى جانبه دون أن نتقاطع أو نتداخل أو نلتصق، نحن لا نخاف شخصا يقابلنا على العشاء؛ لأن معنى التقابل قوة، إننا نخافه وهو يجالسنا على خط واحد ويلتفت إلينا فقط حين يحتاج قبلة، إن حب هذا الشخص أو بغضه أو تملُّقه كلها لن تتفق مع مقاييسه في الحب أو البغض أو التملُّق، كلها ستكون عبئا علينا في النهاية، إنْ هو أقنعنا بأنه لا يفهم الحب أو البغض أو النفاق، لن نفلح ونحن لا نزال نحب الأشخاص بطريقتهم في حب أنفسهم، أشخاص كهؤلاء قد يدمِّرون أنفسهم فنأتي نحن بجبننا وحماقاتنا وإسرافنا وعشوائيتنا فندمرهم وندمرنا. الحب هو أن تعامل شخصا بطريقتك في معاملة نفسك؛ لأنه يعامل نفسه بطريقته في معاملة نفسه، لأن نفسه لن ترضى أن تُجلد مرتين، تُهان مرتين، يُقسى عليها مرتين، تفلس مرتين.. حبنا بهذه الطريقة -أي بطريقة حبنا لأنفسنا ومعاملتنا لها- سيريحنا من النفاق ويضعنا بإزاء الحب أو البغض، سيكفينا الكلمات الملونة ويخيرنا بين السوداء أو البيضاء. سينقذنا من الضحكات الصوتية ويدفعنا للبكاء أو الضحك.. حبنا بهذه الطريقة لن يكون خسرانا إلا عليه، أما حبنا

بطريقته -أي طريقته في حب نفسه ومعاملتها- سيكون خسرانا علينا وعليه، سيكون وبالا وعاهة ودمارا، سيكون تفاهة. سنفكر طويلا قبل أن نقول كلمة في حضرة هذا الشخص، سنبهرجها، سنُنَمْنمها، سنعمل على تزيينها، لكننا لو أحببناه بطريقة حبنا لأنفسنا فلن نزيد على إخراج الكلمة التي تخطر ببالنا، لن نجتهد إلا في النطق بها، لن نحرك ساكنا سوى ألسنتنا، وكما نكون في حالة حميمية معه يجب أن نكون أيضا في حبنا له، إننا في الحالة الحميمية لن نلتفت إلى طرقه ولا إلى فنونه ولا إلى زواياه ولا إلى مناطقه، إننا لن نلتفت إلى غير طرقنا وفنوننا وزوايانا ومناطقنا، سنجعل اللقاء مضجرا ولئيما ومشوها وحقيرا ونحن ننصت إلى أصواته ونداءاته وتأوهاته ونهمل أصواتنا ونداءاتنا وتأوهاتنا، كذا في الحب، إن لم تكن الزاوية زاويتنا فكيف نقيسها؟ كيف نعالجها بأدواتنا وبأجهزتنا في حل المسائل؟ كيف نبقى كل الوقت ونحن نعيش على زاوية واحدة بأداتين؟ أو بأداتين على لا زاوية؟ كيف نتحقق من نجاحنا إذا كانت أدواتنا وأجهزتنا مصممة لتتعامل مع زوايانا نحن لا زواياه هو؟ كيف نضمن أنه لن يتطفل على زوايانا بأدواته وأجهزته؟ ليس الحب أن نعيش على زاوية واحدة بأداة واحدة، هذا يسمونه الاستنساخ! الحب هو أن نعيش على زاويتين بأداتين ثم لا نختلف في وحدة القياس، ووحدة القياس هي الحب، أما الأرقام والأصفار والفواصل فنحن، ويتساءل الناس: لم لا يدوم الحب؟ لأن حبكم متغير ومتقلب، لأنه سيتغير بتغير الزوايا والأدوات والمقاييس والأجهزة، لأنكم لا تنظرون إلى الوحدة، لأنكم لا ترقون للاتحاد والتوافق والتكامل، لأنكم تعيشون تفاضل الأرقام، تقاتلها، تناوشها، تخالفها، لأنكم أنتم لا تعرفون

زواياكم ولا أحبابكم يعرفون زواياهم، لأنكم تستعملون الحب في معرفة ذواتكم، لأنكم لا تحبون لأن شخصا ما أعجبكم بخلافاته وتناقضاته وتفاهاته وعاهاته، بل لأنه زوَّر لكم ذاته؛ لتشبه خلافاتكم وتناقضاتكم وتفاهاتكم وعاهاتكم، لأنكم زوَّرتم ذواتكم؛ لنفس السبب، لأن واحدا منكم لم تهمه وحدة القياس، لأن واحدا منكم لم يفلح في مطابقة رقم الآخر، لأن كل الذي سبق ليس من الحب في شيء ولا نصف شيء ولا ربع شيء ولا أقل الشيء، لأنه مجرد بحث عن الذات، وكيف ستحب ذاتا وأنت تجهل ذاتك؟ كيف ستنفعل مع هذه الذات؟ كيف ستصرخ وتحارب وتضحك وترقص وأنت تجهل صراخك وحربك وضحكك ورقصك؟ كيف نحبهم نحن الذين نجهل الطريقة التي نشعر بها بحبهم ودفئهم وقربهم؟ كيف نشعر بالحب والدفء والقرب ونحن نجهل ذواتنا؟

بقيت ساعة تتجول في بين الزهور، كان النور الذي يتلاشى ببطء يفتن مخيلتها، وفي الطريق إلى غرفتها، بعد أن فتئت دقائق تقضم أظافر توقعاتها لـما بعد العاشرة، كان يمشي رفقة أنور بأبَّهة مزيفة وعطر شاهق، تقدم أنور ساعة رآها، وبقيت وسط زوبعة شهقاته الطفولية وهو يلبس شماغا فاخرا، أحاطت وجهه الصغير بيديها، أفصح ثغرها عن ابتسامة تشبه أمَّه، وقالت بشوق بركانيٍّ مكبوت:

- سأنتظرك...

وضع إبهامه وسط شفتيها، نظرت إليه بحنان، أخذ يحركه من طرف فمها إلى طرفه برقَّة وببطء، نظرت إليه بوجل، التصق بها ثم قال: ليت العالم كله هذا الفم.

استردَّ إبهامه التي جبنت أن تتخلى عن الدنيا لأجل فمها، قال وهو يضعها على فمه:

- صغيرتي، أنت لم تدخلي منزلي بعد، هذا يزعجني ويخجلني من نفسي.

- لن أدخله إلا معك.

- أنا معك أسمع وأرى!

واصل وهو يحلُّ الشريطة البيضاء التي تلمُّ شعرها:

- ينتظرك داخل البيت فستانٌ لا يشبه فساتين لبنان التي لم تلبسيها.

همس وهو يحتويها في قبلة: أنا من سينتظرك.

غادرها وهي تنظر إليه وإلى نفسها وتؤمن بأنه لا يقول ما لا يعي، سيسمعها ويراها بآذانه وعيونه، سيكون معها بحضوره الإلـهي، ما كل هذه الحركات؟ ما هذه الرقصة التي تتطلب تعب طرف واحد فقط؟ ما هذا الحب الذي لا يعرف كيف يفرق بين اللغة والحضور والمشاعر؟ ما هذا الحب الذي يتكلم عن نفسه دائما؟ كيف لها أن تتنفس بصدق في بيت لا تأمن أن تبقى فيه مع نفسها؟ كيف لها أن تتصل بشمس وتثرثر عليها وهي تشعر أنها مراقبة في كل انفعالاتها؟ كيف يكون الحب استعبادا بهذه الصورة وبهذه القسوة وبهذه الشراسة؟

لو أنها بلهاء، لفسرت أقواله كما يشاء جسدها ولما تخبَّطت في تعقيداته اللغوية، لما عانت من نفسها ومن خوفها ومن تخبُّطها، لظنت أن «أنا من سينتظرك» مؤشر لشدة حبه وولعه وبكائه عليها، لما ذهبت إلى أنه أراد «لم تُخْلَقي لانتظاري!»، ولفسرت تمريره إبهامه على شفتيها بأنها مقدمات قبلة، لما

أدركت أنه يلجم فضولها وقلقها ويقول لها ببصمة إصبع «لا تسأليني إلى أين أذهب».

دخلت بيته، هو الذي دخل ليست هي، كبرياؤه التي دخلت ليست كبرياءها هي، إرادته التي دخلت ليست إرادتها هي، لم يكن الدخول صعبا، كان الصعب هو البقاء في الخارج، كان الصعب أن تكمل يوما كاملا دون أن تغادر الحوش أو الملحق، كان الصعب أن يستحق دخولها وعفويتها، لا أن يأمرها فتمتثل لأمره، لمَّت خصلاتها المبعثرة التي تخذلها دائما وتستسلم لشهيقه وزفيره، دخلت البيت، دخلت العرش... وصلت إلى غرفة المنتهى**!**.

كان البواب في انتظارها حين كانت تفغر فمها وسط الصالون، اقترب منها بحياء رجل خمسيني رأى طفلة جميلة، رحب بها. يبدو أنه أحب السودانيين وغموضهم وكبرياءهم وصمتهم وأناتهم، لم تر غيرهم منذ خطت خطوتها الأولى في هذا البيت، ابتسمت له، فقال بأدب:

- خذي راحتك. وإن أردت جناح السيد فهو في أقصى هذا المسار على اليمين.

احتارت في أي الاتجاهات تسير، احتارت أين تجد الفقاعة التي إن لمستها علم بدخولها، حاولت أن تسير على خارطتها هي... لم يكن السير بلا خارطة في بيت كهذا آمنا، لم يكن مشروعا ناجحا، كانت تهجو حظها وهي ترى البيت على وسعه لا يسكنه سوى الخدم، وهي على وسعها لا تعرف أين تسكن، تذكرت أنها نسيت هاتفها في الغرفة الملحقة، فلم تأبه، ربما كان سيلجئها إلى اقتراحات شمس وخططها التي لا تناسبها.

في جناحه، كانت المتاهة الحقيقية، كان كل مصباح، كل باب، كل سقف يعني لها لغما، لم تعرف كيف تتصرف وقد وجدت نفسها في جناح واحد بين كل الأجنحة التي فتحت لها، التي فتحت؛ لتطردها، فتحت؛ لتعيدها إلى الخارج. إن بابا مفتوحا لن يكون لنا وحدنا، وحدها الأبواب المغلقة تطمئننا بأننا أهلها، فتحت بابا فكان يؤدي إلى المكتبة، أغلقته، ثم فتحت آخر وآخر وآخر، حتى شعرت أنها جاسوسة وليست حبيبة، شعرت أنها غريبة، وأنها متطفلة، شعرت أنها تقتحم البيت لا تدخله، تفتِّش عنه لا تأتي إليه، شعرت أنها منبوذة، وحين همَّت بالخروج، حين غضبت وأفلست، حين توقفت عن العبث بشخصيتها، كانت ثَمَّ غرفته، المكان الذي لو اقتربت منه لاحترقت، كلا، لن تحترق جسديا، ستحترق مبادئها وإراداتها وقواها، ستحترق إحساساتها وإدراكاتها، ستحترق الكبرياء الوردية... أي تفسير منطقي يليق بها وهي تفتح باب غرفته وحدها؟ أي تشخيص يناسب هذه العبثية، وهذه السخرية، وهذا التلعثم؟ أيّ دليل يثبت لها أنها غرفته التي ينام فيها ويذنب فيها ويضاجع فيها ويكون فيها غير ما يكونه معها أو مع نفسه أو مع غيرها؟ أي إشارة تطمئنها بأنه لم يخلق الغرفة والتفاصيل والأضواء وكل هذا للعبث بها؟ بأي لغة تعلل نفسها بأنها أول من يجد هذا الباب مفتوحا؟ إن الأنثى الحقة ليست من تبحث عن أثر سابقتها في غرفة رجل، بل هي التي تفعل ما يجعلها لا تكون سابقة لغيرها... غرفة كالجحيم: معذَّبة ومعذِّبة، يغلِّفها الزجاج الذي لم ينجح في كشف حقيقته أمام نفسه.

رجل ينام بين الزجاج، ألا ينسى ملامحه عندما يخرج من بيته؟

كان يستلقي على فراشه فستان سهرة أخضر يشبه ذاك الذي لبسته لأجله أول مرة، ذاك الذي تسوَّلته من شمس، ذاك الذي ودَّت شمس لو أنها فيه ليلتها، لم تكن شديدة الملاحظة بالقدر الذي يعيدها إلى تفاصيل ذلك الفستان ومشابهته بالذي بين يديها، لم تتصور أن يكون راقبها وتعشَّى معها وحفظ فستانها وسافر في لحظة واحدة، إن من غير معقول أن نعامل بشرا يسعى لإقناعنا بأنه إله! غير معقول هذا التعامل وهذا البشر وهذا الإله، وكصدقات الصالحين الذين لا يشعرون الفقراء بامتنانهم عليهم، وضع إلى جانب الفستان بطاقة صرف آلي، وكان هذا أجمل ما فعله، لم تأبه بشيء مما حدث وهي تشعر بأنها قادرة على إرسال مبلغ من الفرح والشبع لأهلها، لم تصدق أنه قد يحسن إحسانا من هذا النوع، فأخذت الفستان والبطاقة، وأغلقت الباب، أغلقته وهي رماد ودخان... لا بأس، طالما سيشبع خالد وغسان لا أبالي، حدّثت نفسها بمنطقها هي، لا منطقه هو، فداخَلَها ارتياح يشبه ذاك الذي نشعر به ونحن نضع أيدينا على جرح جديد، غادرت الجناح، استقبلها البوَّاب بذات الأدب؛ ليحمل عنها الفستان. أومأت له بالشكر، وهي تعجب من جرأته على مساس فستان ستلبسه لسيده، لعله ملقَّن كما يكون الخدم هنا ملقنين، لعله آلة بشرية أدخلت فيها أوامر بشرية فقامت بتنفيذها، لعله بعفوية كبار السن أراد مساعدتها فتكون ظلمته بكل هذا. إن متاهة اللغة وظلمها واعتداءها وبذاءتها وسخافتها هو أنك لن تستطيع أن تكون مخلصا وأمينا وصادقا وطيبا ورحيما كلما تعمقت فيها.

قرطٌ أخضرُ طويلٌ

عرَّضت تعب جسد لغواية حمَّام دافئ بعد أن هاتفت شمس وطلبت منها أن تعلمها طريقة تحويل مبلغ إلى جارتهم، تلك السمينة التي تشبه الدجاجة... كانت العاشرة إلا ربع، للمرة الأولى كانت ترجو أن يتأخر عن موعده، للمرة الأولى لم تحسب لعودته حسابا، كانت تستمتع بالماء وحسب، وبسرعة جففت شعرها وارتدت الفستان الذي بدت وهي فيه كزهرة غاردينيا، ثم جلست تنتظره في خضمِّ توقُّعاته في الصالون.

ربح هو صفقة رائعة، وعاد بسعادة يكتمها، فهو لا يرى الحديث عن جوانب حياته الأخرى -التجارية خصوصا- معها موضوعا جيدا، دخل من باب آخر يؤدي إلى جناحه، وعند العاشرة تماما رأته يمشي نحوها بطريقته المربكة التي أربكتها تلك الليلة في لبنان، همت بالقيام له فأشار لها بالبقاء، اقترب منها وهو يقول بضحكة:

- لا أثق بمن يقومون لي.

كيف توضح له أن المسافة التي كانت تفصل بينهما أحوجتها للقيام؟ كيف تفصل له القول في اضطرابها وتلبُّكها وهي لا تعرف بأي وجه تستقبله؟ قالت متفحِّصة وجهه والسعادة التي كانت بادية عليه:

- مع هذا ستغضب إن لم يقوموا.

- لأنني معتاد على نفاقهم. الصادقون أمثالك لا يحتاجون إلى القيام ليثبتوا صدقهم.

جلس إلى جانبها:

- ثم إنك أحلى وأنت جالسة.

ناولها زهرة اشتراها وهو في طريقه إليها، شمَّتها متعجِّبة، ثم ابتسمت وهي تقول:

- وكل الزهور تلك؟

- تلك جئتِ إليها وهذه جاءت إليك.

ابتهجت بملاطفته وطمعت في ليلة خالية مما كان يحدث عصرا، فقد شعرت أنه يعتذر عن صراحته بتلك الزهرة.

- ما اسمها؟

همس لها:

- ذات قبلة!

ثم قبَّل شحمة أذنها التي يتدلى منها قرط أخضر طويل. قالت:

- تحسن تسمية الأشياء. أنا أفقد هذه الموهبة.

- إنها ليست موهبة.

- فما تكون؟

- لا أدري.

أحاطت وجهه الساخر بعينيها:

- أنت لا تدري؟

- طبعا. هل تدركين الخلاص الذي تمنحنا إياه «لا أدري»؟ أنا لا أدري حقا. وأكره أن أكون ممن يعلمون كل شيء. لا أدري أنا إن كانت الزهرة أعجبتك، ولا أدري إن كان موعد عودتي مناسبا.. لا أدري إن كان البيت راق لك والفستان وحتى اسم الزهرة، لا أدري هل ترفضين قبلتي الآن... ؟

- لا أدري!

قال يحشو وجهها بأنفاسه:

- لم أكن لأفاوضك لولا أن القبلة تكون أشهى بالمفاوضة.

شكرته على الفستان وأثنت على ذوقه في اختيار كل شيء، لم تملك غير هذا الشكر وهذا الثناء، لم يملك هو غير تلك القبلة وذلك الاعتراف، لم يملك أحدهما أن ينتقد الآخر، ولا أن يسأله عما فعل في غيابه، لم يملك أحدهما أن يجرؤ على الجلوس مقابلا للآخر، لم يملكا إلا الجلوس على خط حيرة واحد كغريبين.

بادرته:

- سأطبخ لك. ما رأيك؟

- موافق.

قالها حتى بدون أن يفكر ماذا تعني، ربما لأنه سئم الموافقة والرفض، ربما أحب أن يجازف بموافقة دون تروية.

- جد؟.. ماذا تشتهي؟

- الآن أشتهيكِ أنت.

- وبعد الآن؟

- لدينا عشاء جاهز. ستطبخين عشاء الغد.

دعاها إلى صالة الطعام الكبيرة. أبدى لها أنه مأخوذ ببهائها، قال بغرور:

- إنها أكبر صالة طعام ستدخلينها.

عصرت مقولته في ذهنها، كان منطقيا ولو أنه قسا بعض الشيء، قالت:

- معك يا سيدي.

لم تجد بُدًّا من قصم ظهره بهذا النداء. استطرد بعدها في وصف رياضيات الصالة من مساحتها وعدد الكراسي والطاولات المنتشرة فيها، هذه الرياضيات التي تضحكها كل مرة. بعد العشاء ذهب بها إلى جناحه، كان هناك مقهى كلاسيكيٌّ

أعجبها، الإضاءة الزيتونية، المقاعد الخشبية العتيقة، الهدوء الذي يولِّد الضجيج، الجو الأدبي الذي يغري بالكتابة.

دعاها إلى القعود:

- استريحي هنا حتى أعود. خمس دقائق يا صغيرتي.

وجدت الوقت مناسبا لجعله يستجيب لرغبتها، وفرصة لتراه وهو يقْبل شيئا تهبه هي إياه... وعندما جاء كانت تعد الشاي، قالت بخجل طفلة:

- ظننت مواعيدك لن تكون دقيقة إلا خارج البيت.

ضحك، اقترب منها:

- أنا أشدُّ دقَّةً داخله، إن مما يفسد البيوت هو قلة الأدب مع المواعيد، هل قطعت متعتك؟

- أبدا. تفضل إنه شاي.

- تلقنينني أم تشيدين بإنجازك؟

- أجعل له مذاقا لغويّا لا أكثر.

- نخب الإجابات المقنعة إذن.

إنني أجد رائحة شوكولا!

- أنا أقرأ. لا تظني أنني يتيم ثقافة أيضا، ولكنني لا أقرأ إلا الصفقات الرابحة مع كتاب.

استهلَّ رشفته الأولى بهذه البداية الغريبة وقد رآها تحاول قول شيء ولا تستطيع، أراد أن يثيرها، الأنثى أشهى وهي تتكلم

بمعرفتها وإرادتها، سيقيس الارتعاش اللفظي وهي تتحدث عن ثقافتها وعن علومها وهواياتها، سيقارن الناتج بقوة ارتعاشها اللفظي عندما تتحدث عن ثقافاته وعلومه وهواياته، نفشل كل مرة ونحن نـجبرهم على محاكاتنا، نفشل ونتراجع، ماذا لو تكلموا عنهم؟ ماذا لو بسطوا القول حولهم؟ إنهم أروع وهم ينقلون أرواحهم إلينا ويـحيطوننا بهم.

قالت بابتسامة:

- أنا قلَّما أكمل كتابا!

أتـمَّت وهي تستمتع بجلوسه مقابلا لها:

- ستسألني عن أسماء الكتب وسوف أجيبك، سوف أعدد لك أجملها فأنا بارعة في فلسفة أسماء الكتب: «عيناك قدري»، «كزهر اللوز أو أبعد»، «رجال من الشمس»، «طوق الياسمين». ولكنني لم أقرأ واحدا منها كاملا، ضحكت، وهو دائما يستعذب ضحكاتها الساخرة الشُّجاعة.

واصلت:

- أنا لا آبه بالصفقات ربحت أم خسرت. أنا يهمني أن أشتري الكتاب وحسب.

- رؤية منطقية. لهذا أنا لا أقرأ إلا قليلا من الأدب، لأن أدبنا أدب أسماء، لأن كتبنا تخاف أن تخرج على أسمائها، أقرأ فلسفة إيمانويل كانط، أقرأ للغزَّالي، لجبران خليل، وأحيانا أستمتع مع مصطفى محمود، ولا أقرأ واحدا من هؤلاء كما أقرأك، أنت الأشهى والأحلى.

- ألاحظ أنك تحب الفلسفة.

- ومن لا يحب الفلسفة؟

- إنـها معقدة.

وضع كوب الشاي:

- كالحياة إذن، إنني أقابل المعقد بالمعقد، أو أجمع بين المعقديْن.

- أحب أن أعرف الفلسفات التي تعجبك.

- لا توجد فلسفات تعجبنا يا صغيرتي، بل توجد فلسفات تنفعنا، وفلسفات لا تنفعنا.. فلسفات تعيننا على الحياة، وفلسفات تعيننا على الموت.

أحسَّ بصمتها العميق، فواصلَ:

- أحب فلسفة جون لوك عندما يرى أننا نولد خالين من المعارف، وكأننا ورقة بيضاء، إن هذا يجعلنا مسؤولين عن حياتنا. وأحب فلسفة المثل الأعلى عند ديكارت، والتوفيق بين الإله والطبيعة عند سبينوزا.

- إنني لا أفهم شيئا.

- هذا لأنك لا تحتاجين إلى الفلسفة.

احتاجت إلى الدفاع عن ثقافتها فسألته:

- ولماذا؟

أجاب بحزن:

- لأن الحياة بالنسبة إليك هي المعقد والمعقد، لا تحتاجين إلى معقد آخر لتغلبي به الحياة.

- لطفا بي يا فراسي..

ابتسم لأنه يحب ياء الملكية، قال موضِّحًا:

- في حياتك يولد الأطفال ويموتون، تُبنى القرى وتهدم، يفرح الناس ويحزنون. أنت تعيشين حقيقة الحياة، لذا لا تحتاجين إلى فلسفة. أما أنا فحياتي مزيفة كما ترين، لا موت ولا خراب ولا حزن.

- إنها ليست مزيفة، أنا أراك سعيدا بها.
- كلا.
- فكيف تفسر هذا الضحك وهذه الأناقة؟
- هل ستصدقين إن قلت لك؟
- ولماذا لا أصدق؟
- إنني سعيد لأنك هنا.
ابتسمت بصمت، ولم تعرف ما يجب عليها أن تقول. فواصل فلسفته:
- إن الفلسفة تعلمني كيف أرى الوجود بعيني طفل، إنني أحب الفلسفة لأنها لا تعلمني أن أكبر وأن أتبلد.
- بدأت أحب الفلسفة.
- لكن لا تضيعي وقتك بقراءتها، لأنك لا تحتاجين إلى فيلسوف يخبرك بحقيقة الحياة، أنت فيلسوفة حقيقية يا نجوى.
- وماذا عنك؟
لمعت عيناه، لأن نجوى سألته السؤال الذي لم يسمعه من أحد قبلها، قال متنهِّدًا:
- أنا شبح يندس في قصر.
- فراس، ألا تحب أن تتكلم بوضوح؟
اختلجت في نفسه مشاعر التوتر، فهو يتكلم بهذه الطريقة لأول مرة، لقد اعتاد لغة المال وألِفها، فهو لا يستطيع أن يتكلم حتى عن نفسه بلغة غيرها، قال وهو يقوم:
- هل نتجول قليلا؟
- إنه وقت متأخر بالنسبة لك. أنا لا أمانع حتما.
- أيُّ متأخر؟ أنا لا أحسب لعملي حسابا، قريبا عندما أجد من يشغلني سأستقيل، إنني أتمسَّك به؛ لأنه لا يدعني أشعر بالفراغ.

شردت عيناها وهي تفكر في «من يشغلني»، شيء كالوعد أو المواساة أصلح خصلة أحلامها المتجعِّدة، من يحتاج رجل مثله، في حالاته وظروفه ليشغله سوى زوجة؟ أيكون يخطط للزواج منها؟ تراها ستتعدى كونها نصًّا أدبيًّا أعجب بصراحته وثورته؟ تراها أكبر من هذا كله؟ انتشلها من شرودها بيديه وعينيه. إنه لا يحضر معك غالبا بحاسة واحدة. ومعها بالذات يكون في كامل إحساسه ووعيه وإدراكه، انتشلها من ضباب أسئلة أخذ يغمر ملامح وجهها، وذهب بها إلى مكان قصيٍّ من الجناح.

قالت وهي تمشي إلى مكان لا تعرفه:

- إنني أجد رائحة شوكولا!

واصل المشي بصمت، كتمت أنفاس اندهاشها برائحة الكاكاو التي كان الجناح يغوص فيها، تكوَّنت في رأسها بينما تغرق في رائحته، تصوُّرات لحجم الدهشة التي يمكن أن تراها، مع أنها اعتادت أن يخالف تصوراتها دائما. لا أريد حقلا من الشوكولا، ضع في فمي قطعة رخيصة إن أردت إدهاشي، بهذه الطريقة كانت تفكر طول الطريق وعرضه وهي ممسكة بذراعه ومتوجِّسة من صمته المباغت، لم تعد ضخامة الأشياء تعني لها شيئا وهي معه، كان هذا في السابق، إنها الآن تريد شيئا بسيطا، شيئا قليلا، شيئا متواضعا يشتركان في الإعجاب به وتمجيده، يفغر فمه أمام الأثرياء من لم يعرف حقيقة فقرهم، لقد مارست التوقعات والاحتمالات والتنبؤات معه وفي غيابه، فوجدت أنه قلَّما يدهشها بزاويته هو، وجدت أنه ينظر إلى زاويتها ويستكثر عليها -مثلا- صالة ملكية كالتي تناولا العشاء فيها، وجدت أنه

يدهشها وحدها، أنه يفعل ما يفعل ليستمتع بفمها مفتوحا، وليست هذه الدهشة، الدهشة هي نحن حين نختار المفاجأة المناسبة!.

وفي صالة مستطيلة، تعوم في صباح من لون السكر، كأنها أفرغت لها، كانت تتنازل تدريجيا عن قطعة الشوكولا الرخيصة، وتنظر بعينيها وفمها إلى الدهشة التي لم تكن تعني له أكثر من اتصال هاتفي. إن من محاسن الأثرياء أنهم يفعلون ما يقولون غالبا؛ ليثبتوا قدرتهم، بينما لا يفعل الأدباء شيئا مما يقولون؛ ليجمِّلوا إفلاسهم، واحد من هؤلاء لن نتمكن من العيش الصادق معه، العيش الصادق يكمن هناك... بين العمال والكادحين الذين لا يتسع وقتهم لشيء من هذه الانخداعات، الذين حققوا ذواتهم ورضوا عنها. لقد وعدها بغابة شوكولا، تصوَّرت هي أن يقدم لها طبقا ويكون هو الغابة فأدخلها الغابة وكان طبقا فارغا من الحس لا يحسن سوى الابتسام والتقبيل. كانت الغابة أقرب إلى الحلم بوطن آمن، بسماء صافية، بسقف لا يحتمل سقوطه في أي وقت، بحضن لا يعرف النفاق، كانت ألفافا كأوراق رواية عصبية وكانت فيها كطير أضاع أمه، لا تبحث عنها بل عن عنوان العش الذي ينقصها، تتوزع أشجار الكاكاو في كل مكان، وبكل الأشكال، ويسيل لعاب نجوى التي لم تأكل قطعة شوكولا منذ سنوات إلا بالصدفة...

أشار إلى سرير واسع وسط أشجار الكاكاو:

- هل جنونك يكفي لننام هنا؟

التفتت إليه:

- لا أدري.

- لو كان الأربعاء. هل ستدرين؟

- كنت أفعل جنون الأربعاء حتى أنساني، أنا الآن بحاجة إلي.

- ماذا يعني هذا؟

- فراس، إنني لن أنام معك.

- جيد.

وأطرق نصف دقيقة متفكرا، ثم أمسك بيديها ومشى أمامها بغضب لم تفهمه:

- تعالي، تعالي، كلي هذه وهذه.. كلي.. كلي.

حشا فمها بقطع الشوكولا وصرخ في وجهها:

- كلي كلَّ هذا، لكن لا تكفري بوجودي.

كانت تنظر إليه بعينيها ولكنها لا تراه. فمها المملوء بقطع الشوكولا والبندق وجوز الهند كان ينظر إليه أيضا ولكن لا يراه، ابتلعت القطع واحدة إثر الأخرى حتى استعادت لسانها، كان هو ساعتها قد هدأ وتباطأت أنفاسه، كان ينظر إليها بعينيه ولكن لا يراها**!**.

تنفست بصعوبة ولم تتكلم، بقيت محدِّقة في فراغ وجهه المنفعل والمتعرق. جثا على ركبتيه وأخذ يقبل فخذيها ويضمها، يقول:

- إنني غير راض عن كل هذا لأنني لست موجودا فيه.

فتبعد يديه وتقول:

- شكرا.

ثم تنصرف غاضبة وهي تعلم الطريق جيدا إلى سريرها الذي ستنام فيه وحدها، لحق بها:

- صغيرتي، لا تتركيني خلفك مرتين، هذا يقتلني.

واصلت صمتها وهي تحاول الإفلات من ذراعيه المعتذرتين، كانت كل الكلمات التي خطرت بلسانها جافَّة ولا تحتمل، لم تكن لتقبل أن يبرم ولو صفقة واحدة على أن يحول بينها وبين نفسها، أن يطمح إلى ما هو أكبر منه وأكبر من ماله، أن يهم بالنوم معها.

صاح:

- قولي شيئا، نجوى، أنت أكرم من هذا السكوت.

- لن أقول شيئا، هل تظن أنك تملكني؟ اللعنة عليك.. اللعنة على قصرك.

- نجوى!

هدأت، التقطت أنفاسها، قالت وهي تخرج من البيت:

- دع فمي لي وسوف أقول، تصبح على خير.

هل نرقص؟

صباحا. استيقظت على اتصال جارتها، كانت حميدة مندفعة وثرثارة بِطاقةٍ تجاوزت مقاطعاتها بين الخبر السيء والآخر، لجأت بعد أن فشلت في اقتضاب كلمة وداع إلى الاستماع لها، فطالما كانت ثرثرتها حلا لمزاجها الملوث كل صباح، أخبرتها أن حالة والدها تحسنت كما رأته في آخر زيارة، وأن خالدا وغسان لم يعودا يؤذيانها بعد أن أرسلت لهما (الفلافل) التي لا أحد يحسن إعدادها في الحي مثلها، وأن كل شيء على ما يرام بخلاف ما يقول الراديو! وأن عليها حضور مسرحية ابنة

جارتهم التي ستتزوج أخيرا يوم الجمعة... استمعت إليها بينما تطقطق رقبة كسلها الثقيلة ولم تنج من تفاصيلها التي لا داعي لها، إلا عندما ناداها زوجها الذي تخاف منه كثيرا، فودعتها على عجل وأغلقت الخط. خرجت من غرفتها بسرعة تبحث عن أنور، لقد نامت بسلام بعد أن استردَّت فمها من جيبه وأدارت له ظهرها، خرجت تهيم في الحوش الكبير وهو ينظر إليها من أعلى، حتى بصرت بأنور يدخل المنزل، ندهتْه وطلبت منه أن يخدمها بتحويل مبلغ إلى حساب جارتها حميدة، لم توصه بإبقاء الموضوع سرا بينهما؛ لأنها تدرك بذاءة تصرف كهذا، وحين رآها تجلس بكآبة قبالة طاولتها الخشبية وتفرقع أفكارها، نزل إليها وهو يحمل قطعة شوكولا يريد أن يعتذر بها عن غابة الليلة الماضية، ألقى تحية الصباح، سحب كرسيا، جلس عليه، وضع يده على خده في منظر حزين وساخر، صمت قليلا، قال معتذرا:

- هل تقبلين هذه الهدية؟

نظرت إلى يده التي كانت تتوسطها كرة من الشوكولا الخام، فلم تُرِد أن توسع خرق روحه الغاضبة، فقبلتها بابتسامة بيضاء:

- شكرا.

أغمض عينيه ممتنا، قام ولم ينبس باستئذان، وما إن تقدم بضع خطوات حتى عاد إليها:

- لن أذهب إلى العمل!

- لماذا؟

- سأبقى معك.

عاد إلى الطاولة، أزاح الكرسي حتى جعله محاذيا لكرسيها، ثم قال بعمق:

- ستذوب الغابة برغم برودة دهشتي، سيذوب كل شيء مهما كان كبيرا، لئن سألتني عن عدم رغبتي في الدوام أخبرْك أنني أرسلت طلب استقالتي فجر هذا اليوم، لئن سألتني عن شيء آخر، عن أي شيء أخبرْك أنني «لا أدري».

قالت بأسف:

- أنا مستاءة جزيلا. ألا تتأنى؟

فرك خصلة من شعرها كانت تضعف تركيزه، قال:

- تلقِّنينني؟ أنا لا أتأنى يا صغيرتي؛ لأنني لا أسرع.

- ...

- لا تواسيني، إنما يواسي الضعفاءُ الضعفاءَ، أنتِ أقوى.

- أنا اقترحت عليكَ فقط.

- سأقترح عليكِ أيضا.

سمَّر قبلة أبوية على جبينها ثم طلب منها اتباعه.

لقد رأت رجلا آخر هذا الصباح، رجلا لا يحمل أيّ فراس، تبعته باللهفة التي نشعر بها حين يرفع الستار عن مطرب نحبُّه، دخل بها المنزل، عبر الجناح بعد الجناح، وهي تطالب بحقها من فكِّ عقد هذا التهوُّر الصباحي، ولكنه لا يستجيب لها. حتى وصل بها إلى غرفة ليست كالغرف، مصمتة من الخارج ويبدو أنها تنغلق على دهشة استثنائية، وقف فجأة وطلب منها أن تتقدَّمه...

لم تفهم شيئا مما كان ينوي فعله رجل استقال لتوِّه من عمله، وكما فتحت أول باب في بيته، كما كانت غريبة وشاردة وجائعة، بذات الغربة والتشرد والجوع، فتحت الباب على قاعة رخامية شاسعة مبهمة كثوب زفاف.

قالت بهدوء:

- يا الله. ما كل هذا؟
- ستعرفين.
ثم واصل وهو يسند ظهره إلى الباب:
- هذا هو المكان الذي لا وطن فيه، هذه هو الخلاص من مزهرة.
- وما مزهرة؟
تنفَّس، أجاب بعمق:
- مزهرة؟ مزهرة هي الصحراء.
اقتربت منه، قالت بطفولة:
- أنا لا أفهم شيئا.
- ستفهمين.
- أرجوك يا فراس، أرجوك.
- سأقول لك شيئا لم أقله من قبل.
تلهفت لسماع هذا الشيء لكنها لم تبدِ شعورها، وضعت يديها على كتفيه، نكست رأسها:
- إنني أسمعك.
- سأتزوج.
رفعت رأسها، لمعت عيناها كأنها سمعت كلاما تنتظره، لم تتكلم، فقال وهو يضع يديه على يديها:
- سأتزوجك.
- أنا؟
- نعم أنت.
تسارعت أنفاسها، وبدأت أنفاسه تهدأ؛ لأنه تخلص من عقدة قديمة، قال يخلِّصها من صعوبة التعليق على خبر كهذا:

- لست أنتظر منك ردا، إنني أعرف أنك تحبينني، وأنت تعرفين أنني أحبك، كان يجب أن تكسريني من البداية يا حبيبتي.

واصلت الصمت، فكان يتحدث إليها كأنما يتحدث إلى أمل، لكنها كانت واضعة يديها على كتفيه ومرتعشة.

هما في قاعة الرقص التي لم يرتفع فيها صوت موسيقى من قبل، قاعة تفتح في المواسم للتنظيف، هما في هذه القاعة لأن الرقص هو بداية العمر، وهو كل الاعترافات الصامتة بالانتصار والحب.

ضمَّها إلى صدره باكيا، وكانت لم تزل مندهشة وصامتة، انتظرته حتى فرغ من بكائه ولم تحاول أن تقول شيئا، فقد أحست بجبل من الصمت يملأ فمها. هدأ، طلب منها التوجه إلى النافذة، قال لها وهو يشير برأسه:

- إن أمي الآن سعيدة بنا.

- ما كان اسمها يا فراس؟

- ريم.

سكت، ثم قال:

- وهذا كل ما أعرفه عنها.

- ألم ترها؟

- لقد خرجت من الحياة بعد أن دخلت إليها، ماتت وأبي في حادث سير.

- لقد قدَّر الله هذا.

- لا، لم يقدره. لن أتهم الله بموت والديَّ، لقد نزفا حتى ماتا.

- ألا يهون عليك إيمانك بأن الله أخذهما إليه؟

- لا، لأنني سأكرهه إن كان فعل هذا.

وضعت رأسه على صدرها، خبأت وجهها في شعره، سألها:

- كيف تنتهي الروايات دائما يا نجوى؟
أجابت:
- لا تنتهي الروايات، يتعب منها الكتَّاب ليس إلا.
- كيف يتعبون؟
- لتعبهم متاهات كثيرة، هل تنوي كتابة رواية؟
- أريد أن أنهيها.
- آسفة، لا أستطيع مساعدتك، أنا لم أكمل أيا من الروايات التي قرأتها.
واصلت:
- لكن ما هي الرواية التي تريد إنهاءها؟
- حياتي.
نظرت في وجهه مباشرة:
- تنهي حياتك؟
- نعم.
- لماذا؟
- لأنها كئيبة.
- لكنني معك، إنني زوجتك!
- ستنهين معي حياتي القديمة.
استراح صدرها الخائف، لقد ذهبت بتوقعاتها بعيدا، ظننته سينتحر. سألها مبتسما:
- هل توقعت أنني سأنتحر؟
- نعم.
- لماذا؟
- لأنك كنت تسير نحو الانتحار منذ البداية.
- والآن؟

- الآن أنا معك، وسأجعل حياتك أجمل.
قال مندهشا:
- لقد كنت أزعم أنني أنا من سيجعل حياتك أجمل.
- ستفعل هذا.
طلب منها المشي إلى نصف القاعة، حيث توجد دائرة كبيرة للرقص... قال لها:
- لماذا كنت تكتبين يا نجوى؟
قالت وهي ترتب شعرها:
- لأقتل الموت.
- وكيف تقتلين الموت؟
- أترك روحي حية بعدي.
- كيف؟
- أنقل أفكاري إلى الآخرين.
- عظيم، هل نرقص؟
- لا أحترف الرقص.
- أنا أيضا. فلنتعلم.
- إنني جائعة.
- وأنا جائع أيضا.
ضحكت:
- إذن، سنرقص على الجوع؟
أمسك بيديها، قال لها:
- غني يا نجوى.
- ماذا؟
- غني.. غني..
- أنا صوتي سيء.

- لا تهتمي.

كانت عيناه تلحَّان عليها، فبحثت في ذاكرتها عن أغنية، وبدأت تغني بخجل:

- «وحدُن بيبقوا، متل زهر البيلسان». (أغنية لفيروز)

ثم توقفت تضحك. لكنه راح يكمل عنها:

- «وحدُن بيبقوا، بيقطفوا وراق الزمان».

وأرخى جبينه على كتفها اليسرى ليرتاح أخيرا، فأكملت هي بقية الأغنية باكية مرة وضاحكة مرة أخرى...

**** ****

تتمة كلمات الأغنية:

« بيسكِّروا الغابة
بيظلّهن متل الشتي يدقُّوا على بْوابي

...

يا زمان، يا عشب داشِرْ فوق هالحيطان
ضوَّيت ورد الليل ع كتابي
برْج الحمام مسوَّر وعالي
هجّ الحمام، بقيت لحالي

...

يا ناطرين التلج، ما عاد بدّكن ترجعوا
صرِّخ عليهُن بالشتي يا ديب، بلكي بيسمعوا

...

وحدُن بيبقوا، متل هالغيم العتيق
وحدُهُن، وجوهُن وعتْمِ الطريق

عم يقطعوا الغابة
وبإيدهُن متل الشتي يدقوا البكي
وهنِّ على بوابي.
...
يا زمان،
من عمر فيي العشب ع الحيطان.
من قبل ما صار الشجر عالي.
ضوّي قناديل وأنطر صحابي.
مرقوا وفلّوا، بقيت لحالي.
...
يا رايحين وتلج، ما عاد بدّكُن ترجعوا
صرِّخ عليهُن بالشتي يا ديب، بلكي بيسمعوا».

**** ****

الشكر الجزيل

* لأمي التي سألتني كل يوم «أين وصلتَ في الرواية؟»، ولأبي الذي أراد أن يسافر إلى كل الأمكنة بحثا عن دار نشر لكنني طلبت منه أن يرتاح، فالشبكة العنكبوتية أوسع صدرا.

* للكاتبة السورية نور الهدى مُبدعة النصوص المكتوبة بالخط *المائل*، والوحيدة التي قرأت الرواية أكثر من مرة.

* لكل من قرأ كلماتي الأولى، ونشرها، ولكل من سيقرأها وسينشرها.

* للصديق عادل حكمي AdoolHakami@ مصمم غلاف الطبعة الأولى والثانية.

دعوة

* إلى زيارة صفحة الرواية على الفيس بوك

www.facebook.com/hungryskies2014

* إلى زيارة موقع إي-كتب على الرابط

www.e-kutub.com

* إلى متابعة آخر كتاباتي على مدونة ظهر مكشوف

nakedback.blogspot.com

* إلى انتظار روايتي القادمة

لـك أن تفـترض إلى الآن أننـا متشـابهان. كلانـا سـيِّدٌ يكـذب علـى نفسـه، أنـت لـك قبيلتـك وأنـا لـي قصـري، لكـن الأمـور قـد تتغـير، بـل ممكـن جـدا أن تتغـير. ثمـة فرصـة تنتظرنـي لأكـون إنسـانا، أمـا أنـت فـلا فرصـة في انتظـارك. إننـي أحـترم حزنـك، إننـي أحترمـك جـدا. لكننـي لـم أعـد أحتمـل هـذا التشـابه بيننـا، يجـب أن أصـير إنسـانا حقيقيا.



